سيريل بيرت



ترجمة

سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

المقدمة

اعتدنا ــ نحن الكتاب ــ ان نكتب مقدمة للموضوع الذي نطرقه ــ سواء أكان مترجما أو موضوعا ــ تتحدث عما يحويه الكتاب من افكار واستفهامات ، لا بل ان برنارد شو كان يكتب المقدمة بشكل مطول قد تأخذ حجما يعادل الموضوع الذي يطرقه • اما في مقدمة هذا الكتاب فقد كان الاجدر لو اننا خالفنا ما اعتدنا عليه ووضعنا هذا النص في نهاية الكتاب •

وليعذرني القارىء مما كنت انوي الاقدام عليه ، فان كاتب هذا الكتاب ــ سيرسيريل بيرت ــ قد نال من النقد الصارم ، وعلى الاخص في اخريات حياته وبعد مماته ما جعلني اتوقف عند النقد الموجه اليه في حياته • لان الرجل قد مات ولم يبق في الميدان من يدافع عن أفكاره ــ وهو الذي اتهم بالعنصرية ــ الا القلة من الناس •

عالم النفس سير سيريل بيرت ولد في ٣ آذار ١٨٨٣ وتوفي عام ١٩٧١، وقد كان فردا خارق الذكاء واسع المخيلة قوي البصيرة ، هذا علاوة على قدرته الفائقة على التحصيل والاسترجاع ، مما دل عليه تفوقه في الدراسة منذ سنواته الابتدائية واستمراره على نفس المنوال حتى بعد تخرجه من الجامعة • ولم تتوقف مزاياه الفردية التي تمتع بها عند ذكائه ، ولكنها

تعدته الى روح الدعابة والمرح الذي عرف بـه بين مقربيه القلائل ، وبين جمهور محاضراته العلمية والعامة •

درس بيرت بكلية اليسوع (احدى الكليات المكونة لجامعة اكسفورد العريقة) ثم التحق بجامعة فورتزبيرغ بالمانيا عام ١٩٠٨ وعند رجوعه الى انكلترا بعد انتهاء الصيف انخرط فـي أول مركـز جامعي لـه بجـامعة ليفربول •

ولقد انتج منذ اول حياته العلمية (١٩٠٨) الى احالته للمعاش (١٩٥٢) وحتى مماته (١٩٧١) على مدى ثلثي قرن ٣٧٤ عملا علميا منشورا ،بالاضافة الى اشرافه على ١٦٨ رسالة دراسات عليا للعديد من مرموقي علـم النفس اليوم في اوروبا وغيرها من البلدان ، أي بمعدل ست أوراق علمية وخمس رسائل سنويا •

ساعدت الظروف كثيرا بيرت فـي وضـع قدمه بميدان علم النفس ، فحين عين سنة ١٩٠٨ في جامعة ليفربول كان علم النفس متفجرا نابضا بكل ما هو جديد ، خاصة بعد (تأويل الاحلام) لفرويد سنة ١٩٠٠ ، ثـم (متنوعات في الخبرة الدينية) لوليم جيمس في ١٩٠٢، ثم (أوراق بافلوف) عن التعلم الشرطي سنة ١٩٠٣ ، و (التحليل العاملي) لسبيرمان في ١٩٠٤ ، ثم (مقياس الذكاء) لبينيه سنة ١٩٠٥ ، واخيرا (التكامل الوظيفي للجهاز العصبي) لشير تجهون سنة ١٩٠٦ • هذا بالرغم من ان كلا من رجل الشارع ورجل العلم لم يكن مستعدا لتقبله •

وقد تركزت انجازات سيريل بيرت طوال ثلثي قرن على المداخـل الاكثر نظرية مثل السيكولوجية الفردية وعلم نفس الشخصية ولـم يتطرق الى فروع السيكولوجيا ذات الاسس الحيوية مثل علم النفس الفيزيولوجي أو علم النفس المفارق •

لقد اثار بيرت في كتاباته عاصفة من النقاش بين علماء النفس لـم يزل

أوارها مشتعلا الى الآن على اكثر من صعيد، فمجلة النيوستسمان الانكليزية خصصت في عددها ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٨ سبع صفحات طوال لتفنيد نظريات بيرت في علم النفس وهو صاحب المنجزات العلمية الضخمة في هذا الميدان مدعية انه أفتاق اعتمد على التزييف في معظم ما أخرجه للعالم على انه حقائق علمية لا يطالها الغبار • ولم تثر معارضة جدية ضد سيريل بيرت الا اثناء الحقبة الاخيرة من عمره • فقد تمتع ، حتى بعد احالته على التقاعد (١٩٥٣) بقدر كبير من الاحترام والتبجيل ، خاصة من دوائر التعليم الى حد تسمية مدرسة خاصة بالمتخلفين العقليين باسمه ، علاوة على تلقيبه بعميد السيكولوجيين العالمي •

ان افكار واستنتاجات بيرت كانت هدفا للنقد منذ زمن طويل ، ولكن قوة التقدم لم تأخذ بعدا كبيرا الا بعد ان تجاوز السبعين ، فقد كان بيرت مولعا بالنقاش والحوار ، مما وضع نقاده دونه في المهارة ، وان كانوا فوقه في القضية • ومع ان الشك بدأ يساور الكثيرين في آراء بيرت ، الا ان احداً لم يستطع حتى نهاية الخمسينات أن يجد برهانا على أي تزوير بعد • وكل ما ظهر عليه اثناء الستينات كان رد فعل عارم للهجوم الذي شن عليه •

ويمكن اجمال النقاط التي صوبها خصومه له في ميدان ابحاثه على ثلاث : أولها انــه غيَّر تاريخ التحليل العاملي ليخــدم مصلحته الشخصية بحيث يمكن نسبة التقييم الاحصائي الجديد الى اسمه • وثانيها : أنه زيف المعلومات التي قدمها عن دراساته للتوائم الصنوية • وثالثها : انه قدم جداول من نسيج خياله عن نتائج اختبارات ومعاملات ارتباط الذكاء بالتحصيل الدراسي، لكي يثبت تدهور مستوى التعليم بالذي لم يوالفه •

واذا كان لنا من كلمة نقولها في بيرت فهي انه أخرج نظريات سيبقى مكانها مرموقا في تاريخ علم النفس ، سواء أصدقت براهينها أو لم تصدق

وكل ما يمكن ان يقال هو : ليته فكر بصوت عال فحسب ، وليته لم يجر وراء اثبات افكاره عمليا • لان هناك فروقا فردية بين الانسان فعلا ، ولان هنالك عوامل مختلفة تحكم متغيرات الذكاء ومتغيرات الشخصية فعلا ، ولان الوراثة احدى هذه العوامل حقيقة • واذا اردنا ان نعنون سيكولوجية بيرت العامة بطريقة أفضل ، فيمكننا ان نسميها السيكولوجية الانسانية ، لان الانسان عند بيرت انسان يسبق مجموع اجزائه • وهو كائن حي لوجوده في محتواه الانساني بكل أبعاده • وكائن له شعوره الواضح والخفي الحيوي بالنسبة لاستمراره• وله القدرة على الاختيار وعلى تكوين الهدف • أما اذا أردنا أن نحلل سيكولوجية الفردية أو المفارقة، فاننا نخطىء لو قدمنا تزييفه قبل كل شيء أو وضعنا صدق ابحاثه في الصدارة •

كانون الثاني ١٩٨٢

سمير عبده

علم النفس الديني

ان عالم النفس يدرس الدين ـ في هذه الايام ـ لا ليكتشف كونه حقا أو باطلا ، بـل لمجرد انه معنـى برفاقه مـن البشر وبأعمال عقولهم . والباحث النفساني قـد يكون له ـ بصفة كونه انسانا أو فيلسوفا ـ دينه أو فلسفته الخاصة ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكدّر عليـه نزاهته في دراسة شعائر الفرق الاخرى ، أو عقائد الاجناس الاخرى ، ولهذا يستوي عنده ضلال الوثني الذي يركع أمـام الخشب والاحجار ، ورؤى دانتي السامية عن الجحيم والمطهرة والنعيم . وهو يتصيد معلوماته من كل عصر وقطر ، فسيدة بوسطن بروحانيتها وشطحاتها في وادي النجوم ، ورجل الغابة الاسترالي يصيح حول حيوانه المقدس (توتمه) الببغاء الابيض، والسناتور الروماني وهو يعبد زمرا من الارباب والالاهات ، والمسيحي ، والمسلم واليهودي عابدين الها واحدا . كل ذلك الحشد الزاخر بالعقائد والشعائر يمر امامه كمجموعة من الحقائق تلاحظ وتوازن .

واولمسألة يواجهها هي : كيف ينشأ الدين وكيف يتطور وينمو . فهو لهذا يحاول أن ينفذ الى البواكير الاولى للدين ، وهناك ـ في سلوك المتوحشين الفطري وفي أوهام الطفل الصغير ـ يجد مـا يشبه أن يكون مقدمة للعبادات الراقية عند الكبير المتحضر . وقد تقدم لمعونته أخيرا في هذين الميدانين علما الاجناس والتحليل النفسي .

لقــد ظل الباحثون يفترضون أن التصورات الدينية الاولى عنــد المتوحشين نبتت من اعتقادهم في الارواح ، التي قد يتخذ الكثير منها (أو واحد منها) آلهة تعبد • ونحن مدينون للعالم تايلور E. B. Taylor بلفظة انيـنـزم Aninism ـــ ومعناها القول بحيوية الاشياء ـــ وبالرأي المستحسن الذي تعبر عنه ، وهي النظرية التــي تذهب الى ان الاعتقاد في الارواح يعطينا أضيق تعريف ممكن للدين • هذه التصورات الدينية تكاد تبدو عامة في مراحل معينة من تطور الانسان ، ولكن من المفضل أن نقرر كيف بدأت أول مــا بدأت • ولعلها نبعت فــي الغالب من الحقيقة المعروفة ان المتوحشين ـــ كالاطفال والعرافين ـــ ذوو صور ذهنية بصرية واضحة ، فهم كمثل هاملت يرون صورا غريبة بعيون عقولهم • ولما لم تكن لديهم كلمة سيكولوجية مناسبة تصف مثل هذه الصور الذهنية ، تحدثوا عنها كأنها اطياف • ففي الغابة او بين القبور ـــ حيث يخيم الظلام فيمنع رؤية الاشياء ـــ يرى الفطري في خياله أولئك الذين غابوا عنه أو ماتوا ، ويخيل اليه ان اصدقاءه يجيؤون لزيارته وهو نائم ليلا• حتى اذا صحا وفكر في تلك الرؤى الغريبة بدأ يملأ الدنيا بأطياف وأشباح رقيقة ضعيفة شبه شفافة ، وكذلك شأن الصور الذهنية في العادة • وليست هذه الاشباح في الحقيقة الا ابرازا (أو عكسا) للكائنات الوهمية التي يراها في احلام نومه ويقظته •

غير أن اطراد الدراسة قد بين أن الاعتقاد الواضح في القوى او المؤثرات الشخصية انما هــو تطور متأخر نسبيا ، فان سير جيمس فريزر وقد قبل رأي تايلور في الدين بالمعنى الضيق ـــ قد فرق تفريقا بينا بــين الدين والسحر ـــ اذ يقول : ان عصر السحر قــد سبق عصر الدين في كل مكان • وهو يعتبر السحر نوعا من العلم البدائي ، فالساحر ـــ سائرا على ضوابط تقليدية متوارثة ـــ يحاول أن يثير الريح بالصفير ، او أن يجلب المطر بأن يلوح بفرع نخل قد غمس في ماء حار ، فهو الى هذه المرحلة لم

يبتهل الى قوة عالية تتدخل بالنيابة عن الانسان ، وليس هناك الا ثقة ساذجة في العلية الالهية المباشرة • ان غلطة الساحر هي انه يختار العلة الخطأ ، فهو يفضل ان يفترض أن الشبيه يحدث الشبيه على أن يبحث عن القوانين الخفية للطبيعة ، في دراسة للحقائق هادئة صبور •

ولكن فريزر مثل تايلور يعامل العملية كلها في عقل الهمجي كأنما هي نظر عقلي هادىء مرسوم • وظاهر ان هذه المعاملة خطأ سيكلوجي ، فالهمجي ليس عالما صغيرا ، وليس كهنوتا ناشئـا ، انـه ليس مفكرا منطقيا واضحا ، ولكنه شخص غير سريع التأثر ، حريص على أن يخبر ماحوله • ودينه كما تقول دكتورة مارت : ليس شيئا يفكر فيه ولكـن يرفضـه • فالاعتقادات الصريحة ــ عنده كما عند سـائر النـاس ــ تجيء متأخـرة دائمـا •

ان الوعي يشمل الاحساس والعمل كما يشمل الملاحظة والاستنتاج ، وفي العادة تندفع الاحاسيس والاعمال الى الظهور أولا ، أمـا الاعتقادات فانها تنبعث متأخرة لتبرر هذه الاحاسيس والاعمال وتفسرها •

فأول شكل من أشكال الدين ، اذاً ، يجب ان يتطلب فـي الاحساس الديني أكثر مما يتطلب في المذاهب الدينية • ان الدين مدين بميلاده ، كما يظهر ، الى بعض غرائز غامضة ــ ولكنها عامة يشترك فيها الجنس البشري كله ــ هي غرائز الخوف والعجب والخضوع والاعجاب ، بشيء خارج ، أي ما يصح أن نسميه في كلمة واحدة (الروع) أو (التقى) • فهذا المعنى ــ معنى الشيء الرائع ــ يغمرنا قبل أن نكوّن لانفسنا رأيـا واضحا عما فوق الانسان أو فوق الطبيعة بأمد طويل • فعندما تهب العاصفة على قرية كافرية (من قرى الزولو) يهرع السكان الى الخارج ويصيحون في وجهها• ولا تبدو صيحاتهم أكثر من صيحات فـزع وضيق • أمـا (الفيجيون)

فيخبرونك أن الاعصار من صنع رجل كبير يعيش في الغابات ، واذا قتلت البطة المقدسة ،فان الرجل الكبير يغضب ويهيج عاصفة ـ ضارة ـ وعندئذ، يسقط المطر وينزل البرد وتهب الريح ، وينفخ هو نفخا شديدا ، والطريقة الوحيدة لتسكين العاصفة أن تصيح في وجهها وتقذفها بالحجارة • هنا ترى كيف يحس الهمجي أولا بالفزع من شيء يفجؤه في صورة خطرة أو عادية، ثم يقوده فزعه بعد ذلك الى ان يحيك نظرية حول الشيء الذي أخافه، وطريقة تفكيره تجعله يعتبر الجو الرديء من عمل كائن مثل نفسه ، ولهذا يحاول أن يخيف ذلك الكائن أو الرجل الكبير الذي يهدده أو يتقرب اليه زلفى وبالتدريج تحل الصلوات محل نفثات السحر •

وهناك أنواع كثيرة من الاشياء تؤثر في انفعالاتنا، في طريقة غير مفهومة على ما يظهر ، فالرعد والبرق والاجساد الميتة والدم ، كل اولئك رائع مخيف وان يكن مجرد رؤية هذه الاشياء أو التغيير فيها يحزن الهمجي ، فانه يتوهم ان لها نوعا من القوة الخفية • وقد اضطره هذا الى ان يضع كلمة اصطلاحية يعبر بها عن هذه القوة كما تبدو لعقله البسيط • والتعبير المريح الذي يستعمل بكثرة بين سكان المحيط الهادىء هو (مانا) ـ هذه الكلمة تشير الـى قوة نفسية لا قوة مادية ـ تشير الى خاصية اثارة الانفعالات العميقة ،ومن عناصر الشدة والحيوية والنفوذ والتأثير السحري والقداسة المجدة وكل ما هو منذر ومخيف • وقد تحل في الاسد الحي ، أو الجسم الميت ، أو عاصفة من الرعد ، او رئيس من رؤساء القبيلة أو ساحر أو سلاح أو خمر • وهي غامضة ومعجزة معا ، قدسية ولا قدسية ، هي مقدسة بالمعنى المزدوج لتلك الكلمة الافرنكية القديمة ، اي انها موضع التقديس والتحريم معا •

والهمجي ـ اذ يؤمن بهذه القوة ـ قد يحاول فـي حذر ان يخصها لنفسه ، فقد يشرب دم الجاموسة ، او يأكل لحم العدو رجاء ان يحصل على ما بهذه او ذاك من (مانا) فيرهبه رفاقه ، أو أعداؤه ، وشبيه بذلك ما يعتقده

الكثيرون الان من ان بلع خلاصة اللحم البقري يورث آكله نشاط الثور • وعندما قتلت قبائل أشانتي سير تشارلز ماكارثي اجتمع رؤساء الجيش من آكلي لحوم البشر وقطعوا قلبه أجزاء وأكلوه في صمت وجلال تبعا لعادتهم القبلية • مثل هذه الشعائر والمناسك ــ من تضحية الاضحية واكلها احيانا وشرب ماء الحياة وتجرع كأس العظمة ــ تلعب دورا كبيرا في الديانات الفطرية ، وتتحول الشعائر في النهاية الى طقوس ، الى نوع من الحفلات الرمزية ، ثم تنمو المذاهب المختلفة بعد لتفسر الطقوس •

قد يبدو غريبا ــ أول الامر ــ ان نجد في الديانات الراقية في هذه الايام أنواعا من العادات والمعتقدات مستمرة في وجودها ، على ما هو ظاهر من انها من بقايا العصر الهمجي أو عصر ما قبل التاريخ • وتعليل هــذا ان انفعالاتنا الموروثة لم تتغير ذرة واحدة عما كانت عليه عندما فارقنا عهد البربرية ، فلا تزال تنبعث فينــا الرهبة والروعة تبعثهــا نفس الموضوعات والحوادث مـــن الدم والمرض والخطيئة وأزمات الحياة ومصائبها والميلاد والزواج والموت المفاجيء والقوى الغامضة التي يبدو ان لها اصبعها في كل ما يحل بنا •

وعندما نتحول من الهمجي الــى الطفل نجــد نفس الانفعالات على الدوام منبعثة ، فالطفل الصغير يحس رهبة مشابهة نحو أبيه وأمه ، وموقف الطفل نحو أبيه ــ كما يبين التحليل النفسي ــ يشبه موقف الكبير من ربــه ، وهكذا يتصور الهمجي ذلك (الرجل الكبير) الذي يعبده على صورة الوالد الكبير • اضف الى ذلك أننا حين ندرس الحياة الاخلاقية عند الطفل نجده مشغولا انشغالا خاصا بثالوث من الاشخاص ، أبويه ونفسه • ومما يبدو ذا مغزى ان كثيرا من الديانات والاساطير الدينية الاولى ، بل معظمها يتركز حول مجموعة ثلاثية من الاشخاص تشتمل في العادة أبا وأما وابنا : فمثلا أورانوس أو السماء ،وجايا أو الارض ،وابنهما كرونوس في الاساطير

الاغريقية الاولى ، واوزيرس وايزيس وحورس في الاساطير المصرية، وادوم واوكويا وايريبو في خرافات القبائل النيجيرية • فالطفل يتجه بفطرته الى ابيه وامه ابتغاء الامن والراحة والوقاية ، وهو ميال الى ان ينسب لكليهما ــ اولاحدهما ــ المعرفة الكاملة والخير الكامل والقدرة على الخلق وعلى التدبير ، وهذه هي نفس الصفات التي ينسبها المتدين لاربابه الاعلين • ولقد ذهب هربرت سبنسر الــى ان معظــم نظريات الدين وشعائره تطورت من عبادة الاسلاف في الزمن البدائي ، اذ كــان أفــراد القبيلة يعبدون سلفهم المقدس الذي تحدروا من صلبه •

ان اولئك الذين ادركوا هذه الانواع من الاشباه والنظائر قد قفزوا أحيانا الى نتيجة ليسوا فيها على صواب ، فمن افتراض ان الدين بقية من بقايا تفكير الطفولة أو الهمجية راحوا يستنتجون ان الديانات كلهــا ليست الا اثرا خرافيا لا يجدر بالكبير المستنير الابقاء عليه • لقد قابلنا هذا الخطأ من قبل ــ وأنا ميال الى تسميته خطأ النشوئيين ــ عندما بحثنا مصدر الفن • فاذا كان عالم النفس قد كشف كيف تطور الشعور الديني ، فليس يلزم على هذا انه قد حط من شأن الدين أو أبطله أو فسره بمــا يذهب بقيمته • وحتى لو صح أن الموقف الديني موقف طفولة ، فمن الجائز جدا ان يكون هذا أحسن موقف ، بل ربما كان الموقف الوحيد الذي يمكننا أن نتخذه عندما تواجهنا معضلات الوجود المجهولة •

ان العالم كثيرا ما يميل الى اعتبار السحر والدين كأن كل واحد منهما لون اخر فقير من الوان العلم ، نعم ، ان الدين عند الهمجي كثيرا ما أخذ مكان العلم : لقد كانت معلوماته العلمية عن الزراعة ضئيلة فلجأ الى الاضاحي والرقى وكلما أراد ان ينمي زرعه أحرق شابا مطهرا ، على قربان نار بطيئة الاحتراق، والسر في اختيار نار رقيقة على هذه الصورة هو اطالة الوقت حتى تكثر دموع الضحية ، فعلى قدر غزارتها يغزر المطر ، ولكي تكون التضحية

نافذة الاثر وجب أن يختار لها فصل خاص هو أيام الفصح أو أوائل الربيع وإلا لم يتأثر المحصول بهاء وقد كان من واجبات رجال الكهنوت انيحسبوا الوقت المناسب لهذا الغرض ، جاعلين حسابهم على ارتفاع الشمس • و في هذا يلتمس بعض الباحثين مبادىء التفكير العلمي والملاحظة العلمية • ان الدين في يد باحث القرون الوسطى كثيرا ما أصبح علما منظما للوجود كله، ووجهة النظر هذه لايزال يأخذ بها اللاهوتيون الرسميون • ولكن ديانة الجماهير الغالبة من الناس ليست في أساسها مجموعة من المعتقدات الذهنية فالدين الذي يصبح ذهنيا خالصا سرعان ما يفقد كونه دينا ، اذ يصبح فرعاً من الميتافيزيقا • ومع ذلك فلا العلم ولا الميتافيزيقا فـي شكلهما الحاضر يستطيعان ان يعطيانا صورة ــ نهائية أو مقنعة ــ للوجود وعلاقته بالفرد الانساني • ولهذا تجد معظم الناس ــ مهما كانوا حكماء ومستنيرين ــ يشعرون بالحاجة الى شيء ما (وقد يكون هذا الشيء وقتيا محضا) يطمئن احاسيسهم ويقوي ارادتهم •

فكيف ــ اذن ــ يستطيع هؤلاء أن يكسبوا هذه الثقة المنشطة ؟ هل يجلسون ويفكرون في المعضلة من اولها ، كما كان يعمل روبنسون كروزو لو انه وجد نفسه في طفولته وحيدا في جزيرته الصحراوية ، وترك ليكو ّن اراءه الدينية ؟ من الغريب أن هؤلاء يتحدثون كما لو كانت تلك حالهم ، فهم يدافعون عن معتقداتهم أو عن رفضهم الاعتقاد كما لو كان ذلك لونا من الوان النظر العقلي الخاص • ولكن دعني اؤكد مرة اخرى القول بأن الدين ليس مجرد استنتاج منطقي هادىء ، ولا مجموعة من النتائج العلمية يخترعها كل شخص أو يثبتها لنفسه ، فالواقع اننا نأخذ دياناتنا من الجماعة التي نحيا بينها، ونحن نستمدها من ابائنا ومدرسينا، ومن المعابد التي نعتادها في بواكير الشباب ومن الكتب والمجلات التي تقع صدفة في أيدينا ، ومن المعتقدات والاوضاع التي تحيط بنا مجهزة مهيأة ــ وفي عبــارة قصيرة ــ

نحن نستمد دياناتنا أساسا من التقاليد ، فنحن نقبلها كما نقبل الزي الوطني واللسان القومي ، بلا تفكير كثير ومن غير باعث مقرر صريح ، ثم تهاجمنا الشكوك بعد ، وبراهيننا وحججنا تكاد تكون كلها تبريرا متأخرا ، أي عللا تتلمسها لآراء اتخذناها من قبل . وهذه العلـل نلصقها الصاقا بتلك الاراء التي قبلناها ، مثلها في ذلك مثل حاشية تلحق بآخر الكتاب .

ولكن التقاليد دائمة التغيير ، فبالرغم من الحروب والحملات الدينية والاضطهادات والجهود العنيفة في سبيل المحافظة بالقوة على المذهب الاصلي ، بالرغم من كل هذا ، فان بقاء المعتقدات رهـن بمناسبتها لمزاج معتنقيها . وهذه المعتقدات تخضع في هدوء للتعديل والتشكيل حتى تناسب ـ لا المعرفة التي تتزايد كل يوم فحسب ـ ولكن الرغائب والامـال والاذواق والميول والمثل الاخلاقية للعصر والجماعة .

اذن فنحن انى توجهنا انكشف لنا ان الدين ـ مثل السياسة والفن ـ يتوقف على عوامل نحن بها نصف شاعرين * وقد ألقت الدراسات الحديثة للعقل الباطن أنوارا كاشفة على هذه العوامل الغامضة وعلى كثير مما كان

---

* رأى المؤرخون حديثا بوضوح اكثر فأكثر ان التـاريخ ليس سياسة فقط ، وان من المستحيل ان نفصل السياسة عن الدين والدين عن الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية عن الاداب والفنون ، وبصفة عامة ان نفرق بين الخيوط التي تمتزج معا لتكون نسيج ثقافة كاملة . ولقد كتب بعض المؤرخين اسفارا هامة عن الثقافات المفردة ، ولكنهم اخطأوا حينما عالجوا هذه الثقافات على حدة ، كما لو كانت كل منها تتألف فقط من اناس متداخلين في بعضهم البعض في بيئتهم المادية رغم ان الحقيقة هي ان الافكار المحيطة والاقوام المجاورة هما جزء قوي نشط للبيئة في كثير من الحضارات ولقد كانت هـذه احدى الاخطاء التـي وقـع فيهـا ازوالد شبنغلر ، الا ان ارنولد توينبي لم يرتكب هذا الخطأ ، كما اتى على ذلك في مجلديه التـاسع والعاشر من كتابه (دراسة في التاريخ) .

المترجم

قبل غير مفهوم في الحياة والتجربة الدينية • ولاتناول الان على سبيل المثال واحدة أو اثنتين من المسائل البارزة •

لعل ابرز مثل في العالم الحديث هو الارتداد الديني ، وأعني به الانقلاب المفاجيء في الحياة الشخصية لانسان ما الى اتجاه ديني جديد • وهو يتميز عادة باضطراب هائل في العقل ، بثورة من الهياج الانفعالي ، ومن الحماسة الخلقية الشديدة والمعتقدات اللاهوتية القوية • هناك في بلدة باسنغستوك كان يوجد رجل بلغ من استهتاره بالدين وبذاءة لسانه ان سماه الناس توم السفيه وقد حدث ان ورد هذه البلدة واعظ ديني جديد ، فدفع حب الاستطلاع توم الى ان يدخل الكنيسة ، ولم يكن قد دخلها منذ سبعة عشر عاما • استمع توم للموعظة ، وقد جاء في ختامها : (لو ان اكثر الناس عصيانا وتمردا في هذه الكنيسة جثا على ركبتيه وصلى لربـــه لبدل الله قلبه) • فقال توم لنفسه : (اني لاكثر الناس عصيانا وتمردا هنا) ا وجثا على ركبتيه وصلى • فما قام حتى كان قد خلق خلقا جديدا وصار حتى موته يعرف بين الناس باسم توم المصلي • واذا وجدت نفسك أيها القاريء ميالا الى ان تضحك من توم المسكين فاقرأ حيوات بنين Bunyan وفوكس Fox ووزلي Wesley ، أو اقرأ تراجم طائفة المثوديين Methodists فـــي انكلترا الجديدة ، أو استمـــع الـــى كارليل اذا وقـــف موقفـــه تجـــاه اللاأبدية وفي هذا يقول : (بينما كنت أفكر اندفع الى نفسي فجاء احساس كأنه تيار من النار ، ومنذ تلك الساعة بدأت أكون رجلا) • ان الكثيرين منا قد حضروا بعض اجتماعات الحركة الاحيائية Revivalists ورأوا كيف ينفجر الشبان والفتيات يبكون ندمـــا وتوبـــة ، أو يضحكون ويصيحون سرورا وبهجة ، وكيف يأخذ السكيرون على انفسهم العهد ، وكيف يخرج الاغنياء ما في جيوبهم من نقود ، وكيف ينزع النساء حليهن ويقذفن بها في

طبق التبرعات * وكثيرا ما تبدأ جمهرة المتعبدين تغني أو ترقص أو تهذر في لسان غير معروف ، ثم تندفع لتحول بقية البلد تحويلا دينيا • ومثل هذه الفورات تحدث بين وقت وآخر ، في كل قطر وفي كل شرعة تقريبا •

كيف نعلل لهذه الظواهر ؟ ان اول من درسوها من علماء النفس لاحظوا امرا عجيبا ، فقد قاموا باستقصاءات وملاحظات دقيقة في جهات كثيرة ــ معظمها في أمريكا ــ استنتجوا منها ان التحول الديني يحدث في الغالب في أوائل البلوغ وأكثر ما يحدث عند الاناث بين سن الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، وعند الذكور بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة ، وهذا هو الوقت الذي تنضج فيه غريزة الجنس نضجا مفاجئا ، (او هكذا يقول علماء النفس) • أضف الى ذلك ان الحادث الذي يشبه التحول الديني

---

* يرى فرويد ان الدين ينبع من عجز الانسان عن مواجهة قوى الطبيعة في الخارج والقوى الغريزية داخل نفسه . وينشأ الدين في مرحلة مبكرة من التطور الانساني عندما لم يكن الانسان يستطيع ان يستخدم عقله بعد في التصدي لهذه القوى الخارجية والداخلية ولا يجد مفرا من كبتها ، او التحايل عليها مستعينا بقوى عاطفية اخرى . وهكذا بدلا من التعامل مع هذه القوى عن طريق العقل يتعامل معها (بعواطف مضادة) ، بقوى وجدانية اخرى ، تكون وظيفتها الكبت او التحكم حينما يعجز عن التعامل معه عقلانيا .

وبذلك يكون الدين ــ في رأي فرويد ــ تكرارا لتجربة الطفل . ويتعامل الانسان مع القوى المهددة له بنفس الطريقة التي تعلم بها وهو طفل ان يتعامل مع شعوره بعدم الامان . وذلك بالاعتماد على والد يعجب به ويخافه . ويقارن (فرويد) بين الدين وبين عصاب الانحصار Obscssional Neurosis الذي نجده عند الاطفال ، والدين في رايه عصاب جماعي Colle-ctive Neurosis تسببه ظروف مماثلة للظروف التي تحدث عصاب الطفولة .

المترجم

شبها كبيرا هو الوقوع في الحب ، ولا سيما الحب لاول نظرة ، وهذه في الغالب تجربة من تجارب البلوغ • من كل هذه الحقائق استنتج الباحثون ان التحول الديني نتيجة ، ورد فعل معـا ، لانفعالات الحـب الجنسي الجديدة التي تواجه الشاب أو الفتاة لاول مرة في حياتهما •

ليس هناك من شك في أن هذا عامل مهم أحيانا ، ولكن هناك على ما أظن تطابقا آخر بين أوائل النزعات الجنسية والتحولات الدينية في عهد البلوغ • لقد بين لنا علماء التحليل النفسي أن بعض الميول الانفعالية قد تكبت كبتا لا شعوريا ، ومـع ذلك تظـل تنمـو تحت المستوى الشعوري للعقل • أفليس من الجائز ان يحصل مثل ذلك للميول الدينية * لعل البذور كانت هناك طول الوقت تنبت وتنمو تحت غشاء الشعور • انه لمن المعروف ان الوقوع في الحب ـ رغم ما يبدو في الظاهر ـ قلما يحدث مفاجئا ، فالشاب في خلواته المزاجية، وفي احلامه المطوية، وفي شطحاته الخيالية يظل ـ دون قصد ـ يبني صورة مثاله الكامل، وعندما يخفق قلبه اخيرا بالحب، انما يحدث ذلك لان شخصا محققا لاحلامه مطابقا لمثاله قد دخل دائرة حياته ، فكان كمفتاح الشخص الغريب ناسب القفل القديم وفتحه فجأة •

---

* تمثل كتابات ك. ج. يونغ C.G. Yung ورابي ليبمان Rabbi Libeman محاولات للتوفيق بين التحليل النفسي والدين ، وهذه الحقيقة وهي ان عددا كبيرا من رجال الدين يدرسون التحليل النفسي ـ تدل الى أي مدى تغلغل الاعتقاد في مزج الدين بالتحليل النفسي في مجال الشعائر الكهنوتية .

وقد عالج فرويد مشكلة الدين والتحليل النفسي في واحد من أعمق كتبه والمعها (مستقبل وهم) اما يونغ الذي كان اول محلل نفساني يفهم ان الاسطورة والافكار الدينية مـا هـي الا تعبيرات عن استبصارات عميقة فقد تناول نفس الموضوع في محاضرات تيري Terry Lectures التي القاها سنة ١٩٣٧ ونشرت تحت عنوان (علم النفس والدين) .

المترجـم

كذلك الحال في التحول الديني حيث يظهر انه يسبق دائما بمرحلة طويلة متجمعة من الافراغ الصامت . أعد ـ اذا شئت ـ قراءة تاريخ العظماء ممن تحولوا تحولا دينيا تجد انهم حتى في أيام لهوهم واستهتارهم كانوا مشغولين بالدين ، وكانوا في الغالب يحاربونه ، كالقديس بولس اضطهد المسيحيين ، وتوم المصلي كان توم الملعون ، ويحدثنا بنين انه كان حتى في صباه يسخر ويشتم وأن كابوس الشيطان كان يزوره في أحلام مزعجة . فالفحص الدقيق في كل حالة يكشف أن الشخص المتحول لم يكن قبل تحوله غير عابىء بالدين كما يظن ، بل على العكس كان يحس بالدين احساسا قويا . فاذا اعتبرنا التحول الديني ، اذن هدفا لا يوصل اليه الا التفكير الذهني كانت فجائيته لغزا محيرا لعقولنا ، اما اذا اعتبرناه ظهورا مفاجئا لعقدة انفعالية ظلت تحت السطح أشهراً وسنين تقوى وتنمو ، فانه يصبح أمرا مفهوما لنا * .

ولكن التحول الديني في أيام البلوغ على انتشاره ، ليس النوع الوحيد المهم ، فان بعض العظماء من الدينيين ـ من أمثال القديس بولس والقديس أوغسطين وأيضا تولستوي ـ لم يتحولوا في أيام حداثتهم ، بل في عهود من حياتهم متأخرة نسبيا . وآثار التحول الديني

---

* ان اهتمامات رجل الدين المتفاني ، واهتمامات عالم النفس واحدة بعينها . فرجل اللاهوت يهتم اهتماما شديدا بالمعتقدات الخاصة بدين ما بدينه ودين الاخرين ، لان ما يهمه هو حقيقة اعتقاده في مقابل اعتقاد الاخرين . وكذلك ينبغي على عالم النفس ان يهتم اهتماما شديدا بالمضامين الخاصة بالدين ، لان ما يهمه هو الموقف الانساني الذي يعبر عنه الدين ، وما نوع تأثيره على الانسان ، وهل هذا التأثير حسن ام سيء على تنمية قوى الانسان . وهو لايهتم بتحليل (الجذور النفسية) للاديان المختلفة فحسب ، بل (بقيمتها) .

المترجم

المبكر كثيرا ما تكون عارضة قصيرة الامد .وهناك نوع اكثر طرافة من هذا يتنزل على شخص مؤمن متدين ويحوله الـى صوفي Mystic . وأخص صفات المتصوف انه ينشيء او يكشف في نفسه تجربة ــ تبدو لاول نظرة دينية خاصة ــ لا تحدث مرة واحدة ولكنها تحدث باستمرار خلال حياته ، تلك هي حالة عقلية معينة ، اذا لابسته لم يفكر في الله فحسب ، ولكن يحس به ويدركه ادراكا قاطعا . وهذه الظاهرة خاصة غريبة ، تصادفها في كثير من الديانات المختلفة خلال العصور ، وأوصافها تتشابه تشابها عجيبا ، والكتاب الدينيون أنفسهم يشيرون الى هذه الاحوال باعتبارها أحوال صلاة .

سيكولوجية الصلاة

الصلاة كلمة يستعملها الكتاب الدينيون في معنى اصطلاحي واسع ، فهي لا تعني مجرد دعاء لفظي ، ولا مجرد تعبير عن الحمد والثناء ، فتلك ليست الا أمثلة محدودة من الحالة العقلية العامة التي تفسرها كلمة الصلاة. اما الخاصة الحقيقية فهي احساس بهيج من الاشراق الروحي . ولعل كلنا قد مر يوما مابشيء من هذه التجربة ، لعله مر بها عندما رأى لاول مرة وهو وحيد شروق الشمس فوق قمة مجللة بالبرد ، او عندما اشترك في صلاة دينية على عظيم راحل . هذه التجربة تأتي للكثيرين في شكل شخصي قوي، فيخيل اليهم ان الله روح لا جسد له يتجلى لهم مباشرة ، فيخاطبه الواحد منهم دون وساطة ، ويحس انه متحد معه ، في جو من الغبطة لا يستطاع التعبير عنه .

ولقد لاحظ عالم النفس ان احوالا من الوجد شبيهة بما تقدم تحدث لاشخاص يقعـون تحت تأثير مخدرات الاحساس ، وبعض المتعبدين يعمد الى اثارة هذه الاحوال بتناول العقاقير كالحشيش والكحـول والافيون ، وتوصف التجارب الناتجة من هذا بأنها الهامات تحذيرية . والغريب في أمر هذه الالهامات ان العقل اذ يعود الى رشده لايعدها شيئا ذا قيمة . وقد جرب وليم جيمس هذه التجربة على نفسه بأوكسيد النيتروس ــ غاز

طبيب الاسنان ـ واملى وهو تحت تأثير ما ظنه اذ ذاك خواطر من الاتحاد العجيب •

وربما كان أشهر مثال من هذا النوع ذلك الذي سجله جون سيموندز الشاعر الناقد المشهور في القرن الماضي ، اذ يقول : (ما أعجبه من أمر ! ان احس بهجة رؤية الله ، تلك الرؤية الطويلة غير المحدودة بالزمان ، الرؤية التي يغمرها الحق والحب المطلق ، لم أجد بعد ذلك انه لم يوح الي وانني انما خدعت بذلك التأثير غير العادي في دماغي) •

وتحدث احوال شبيهة بهذه في الازمات العصبية أثناء الغيبوبات او النوبات الهستيرية او الصرعية • ولعلنا نذكر كيف يصف دستويفسكي في قصة الابله ، خواطر الامير المصروع ، لقد كان دستويفسكي نفسه مصابا بالصرع ، ولا شك في انه في قصته يصف أحاسيسه الشخصية ، فهو يتكلم عن : (لحظة من الحس العميق تفيض بالوجد والاخلاص •• لحظة من الانسجام والجمال في أرقى درجاتهما •• وإني لأجود بحياتي كلها في سبيل هذه اللحظة) •

ويلاحظ ان الكثير من هؤلاء الكتاب ، من امثال سيموندز يميلون كما يميل كثير من علماء النفس ، الى القول بأن الرؤى التي يثيرها العقار أو المرض رؤى لا قيمة لها لهذا السبب • ان عالم النفس في صفته العلمية النفسانية لا شأن له بصدق التجربة أو قيمتها • ولكن يجب أن نحتاط من القول بأن هذه الرؤى لا بد ان تكون أوهاما أو خيالات خادعة، فربما كان الدماغ قد هيىء بالفطرة ليستجيب لهذه المؤثرات الدقيقة التي تحيط بنا في حالة واحدة فحسب ، وهي ما نسميه من وجهة نظر الحياة الدنيا ظرفا غير طبيعي • ان الدماغ الطبيعي قد نشأ للمطالب العلمية لحياة أرضية ، ولم ينشأ لتذوق الموسيقى او الشعر او التصوير او القوانين الاساسية للوجود • ان الرجل العملي لا يرى الا القيمة

العملية فيما يحيط به من الاشياء وينسى انها قد تحتوي في ذاتها ولنفسها قيما خفية عميقة •

ان المتصوفين الشرقيين يفضلون ان يستثيروا هذه الاحوال بأن يغمضوا أعينهم عن هذه الدنيا الدينة واشيائها الزهيدة وينظروا الى داخل نفوسهم • أما مسيحيو القرون الوسطى فكانوا يستجلبونها باخماد الجسم وتركيز الافكار على رمز ديني • وكلتا الطائفتين كثيرا ما تعدان انفسهما بالصوم واتخاذ مواقف جسمية خاصة والقيام بتمرينات نفسية وتكرار كلمات من نوع خاص رتيب • ويفضل الشعراء المحدثون في العالم الغربي ، من أمثال وردزورث وكيتس وشيلي وبرونج وريشارد جفرز ، ولنكتف بهؤلاء فهم أشهرهم ، يفضلون ان ينظروا الى الخارج وان يجدوا غبطة منبعثة من وراء العالم الحسي يثيرها في نفس الواحد منهم تأمله الطبيعة على انفراد، او تجارب الحياة والحب الانساني • وقد ذكر واحد أو اثنان منهم في هذا طرقا عجيبة • فان تنيسون مثلا كان يستطيع ان يجلب على نفسه نوبة ذهول وغيبوبة ، بأن يكرر اسمه ، وبعد هذا كما يقول تذوب فرديته في الحال ، والحالة التي توسطت بين هاتين لم تكن مختلطة ، بل كانت أوضح الوضوح واكد اليقين ، يبدو فيها الموت استحالة مضحكة ، ويصبح انعدام الشخصية الصادقة الوحيدة • وهو يشير الى هذه الرؤى اكثر من مرة في قصائده • ومهما يكن فنحن نستطيع ان نتبين بين الاحوال الصوفية للصلاة واحوال مدمن المخدرات فارقا عمليا واحدا ، فالاولى في العادة مساعدة والثانية ضارة ، ومن قام من صلاته خيرا مما كان ، فقد استجيبت صلاته • والثمرة الرئيسية للصلاة ، كما يؤكد المتعبدون انفسهم ، ليست في ان الدعوة الخاصة قد حققت بمعجزة ، ولكن في ان المصلي نفسه يحس عزاء وقوة بعد تجربته ، فالصلاة ـــ ولو لم تنتج اثرا ماديا ـــ قد تحدث تغييرا روحيا •

هنا معضلة اخرى لعالم النفس ، تلك هي تأثير الصلاة ، وهو في العادة ميال الى حلها على اساس ما يسميه الايحاء ، والايحاء كلمة يقصد بها ان الافكار ولا سيما الافكار الانفعالية ، تميل في صورة آلية الى ان تتحقق في معتقدات واعمال معينة ، بصرف النظر عما قد يكون هناك من اغراء أو برهان منطقي • واكثر ما يحدث الايحاء في تلك الحالات التي تكون وسطا بين النوم واليقظة • ادم النظر الى نقطة من الضوء او عد عدا آليا فمن واحد الى الالف تجد انك تستطيع ان تجلب نوعا من غيبوبة الحلم اشبه بحالة السنة التي تسبق ذهابك الى النوم • ولعلك تلاحظ،وعقلك على هذه الحال ، ان صورك العقلية تكاد تقرب من الاحلام في واقعيتها • وكثيرا ما يحدث ان تنقل اليك وانت في هذه الحالة افكار العلاج ،وافكار الخوف والخطر احيانا ، نقلا نافذا • ان (كويه) يطلب الى مرضاه في هذه الحالات النائمة ، ان يكرروا لأنفسهم تكرارا ميكانيكيا قولهم : (يوما بعد يوم ، في جميع النواحي ، صحتي آخذة في التحسن) • ولشد ما يدهشون ويفرحون حين يستيقظون في صباح اليوم التالي فيجدون صحتهم في كثير من الحالات قد ردت اليهم •

وما التنويم المغناطيسي ، وهو عمل معروف لرجال الطب في كل مكان الا خطة منظمة لاستغلال هذه الحساسيات الانسانية ، فليس منه شيء مغناطيسي وليس فيه من الشعوذة أو السحر أكثر مما في الحيل الخادعة التي يلجأ اليها صاحب الاعلانات • وكثير من الحالات الصوفية كما عرفها مسيحيو القرون الوسطى ، او كما تعرفها طوائف اليوغي في الهند كثيرة الشبه في اغراضها وفي طريقة احداثها بهذه الاحوال القريبة من التنويم المغناطيسي • ومن هنا نجد عالم النفس ميالا الى ان يشرح التجارب الصوفية والاحوال التي تجاب فيها الصلاة على اساس من الايحاء الذاتي •

وهذا لا يقصد منــه بالضرورة هدم صحة هــذه التجارب أو نتائج الصلاة ، فلعل الله قدر في نظامه ان يستجيب عن طريق الوسائط الطبيعية لا الوسائط الخارجة عن دائرة الطبيعة . هذا الى انه مما يستطاع تصوره ، اننا في هذه الاحوال الغريبة من التغيير نستطيع ان نلج باب ذخيرة كبيرة من النشاط العقلي لا نستطيع اليها وصولا في الظروف العادية،ولقد كانت هذه فكرة واحد من أشهر علماء النفس .. وليم جيمس .

كان فرضا من هذا النوع ذلك الذي جر جيمس وكثيرين غيره من الباحثين العلميين الى الاهتمام بالبحوث الروحية . اما نتائج هذه البحوث فلعلها جاءت مقنعة لعلماء الطبيعة اكثر منها لعلماء النفس . حقيقة ان علماء النفس الان مستعدون أن يقبلوا حقائق التنويــم المغناطيسي والشخصية المتعددة . وقليلون منهم يميلون الى قبول فكرة التليباثي (الاتصال النفسي الاثيري). ولكن اغلبيتهم اذا تطلبت الدليل على خلود الروح ، طلبته لا في ظواهر المذهب الروحي ، بــل في الخطوات العقليــة ، كمــا تدرس في ظواهرها اليومية او كما تحلل في تجارب المعمل . وفي رأي احدى المدارس المهمة ان كل هذه العمليات يمكن ارجاعها في النهاية الى حدود فيزيولوجية، غير ان معظم علماء النفس ــ على الاقل في بريطانيا ــ يحسون انه حتى الحقائق التيتقررت من قبل لا يمكن قط ان تشرح شرحا كافيا على اساس الفعل الطبيعي او الكيماوي او وظائف الاعضاء . ولقد جهر واحد على الاقل من مشاهير معاصيرنا بأن افترض وجود نفس او شيء مشابه لها يعطينا أحسن حل للمعضلة . ولعل الرأي الغالب في ايامنا هذه هــو الذي يميل الى فصل الجسم عن العقل كما تعودنا ان نفصلهما منذ ايام ديكارت وعند اصحاب هذا الرأي ان الانسان ليس مجرد جسد هامد ضم اليه طيف او خيال او روح ضما غير وثيق ، فربما كانت المادة اكثر روحية ، وربما كانت الروح أكثر مادية مما نظن نحن في الغالب .

غير ان هذا كله ليس الآن الا تأملات فكرية جذابة • وان سيكلوجية الدين لم تصل ــ وليس من المحتمل ان تصل بنا ــ الى نتيجة نهائية في شأن ما وراء الستار الطبيعي • ومع ذلك فمما لا شك فيه ان هناك بعض نتائج ايجابية قليلة قد برزت امامنا : واولى هذه النتائج على ما ارى ان بعض الحقائق ظل العلماء زمنا ينكرونها انكارا تحكميا ، اصبحت مقبولة الان وان لم يكن ذلك القبول دائما حسب قيمتها الظاهرة • فكثير من العجائب التي اذاعتها لنا صفحات التاريخ من الرؤى والاشباح والادوية المعجزة والمس الشيطاني وغيبوبة التنويم المغناطيسي وما الى ذلك مما كان يرفض في الزمان القديم باعتباره غير جدير بالبحث ، أصبحنا نعرف الآن ان لها أساسا من الحق ، وان كان هذا الحق كثيرا ما أسيء فهمه • ان الرحالة ليعود من رحلته في الهند او سيبريا وجعبته حافلة بقصص وأعاجيب رآها ، ولقد يدهشه ان يسمع ان اضعاف هذه القصص والأعاجيب يمكن ان تحدث في جلسة روحية في لندن أو نيويورك ، وقد يملأ نفس الروحي العجب من ظواهر الجلسة الروحية ، ولكنه يدهش اذ يعلم ان هذه الظواهر مألوفة عند رجال الطب والمشعوذين ورجال الدين منذ عصر ما قبل التاريخ • فكم من هذا يقوم على الوهم ؟ وكم فيه يعتمد على حقائق لم تفهم بعد ؟ هذا السؤال لا يستطيع العلم بعد ان يجيب عنه •

ثانيا ــ نستطيع ان نقول : ان خصائص الحياة الدينية لم تعد تبدو بعيدة كل البعد عن خصائص نشاطنا العقلي العادي ، اذا دققنا النظر فيه • واذا كانت الظواهر الروحية قد شرحت احيانا شرحا ماديا ، فان الظواهر المألوفة في وجودنا اليومي الآن تتطلب شرحا روحيا •

ثالثا ــ ان دراستنا تتجه الى البرهنة على وحدة الشعور الديني ، فعند البدائي والمتمدن ، وعند الاغريقي القديم او المسيحي المحدث ،

وعند المسلم والبوذي والمتصوف الاشراقي Theosphist ، عند كل هؤلاء نجد انفعالات متشابهة وتجارب متشابهة لا ينقطع عملها . وقد تتعدد المذاهب والاساطير الدينية ، ولكن الدين واحد ، وهو كسائر منتجات العقل الواعي يترقى ويتطور ، وقد تتغير مذاهبه في مادتها أو درجة يقينها وقد تبدل شعائره أثوابها الظاهرة ، ولكن تعابيره في أحسن صورها تتضمن أرقى أفكار الانسان وأحاسيسه عما يحيط به من ألغاز الوجود وتبين اسمى موقف له نحو معضلات الفناء . واذن فمهما يكن رأي عالم النفس في التفاصيل ، فانه مضطر ان يعترف ، ان الدين رغم كثرة ارتباطه بالحركات الرجعية ،من اكثر العوامل الاجتماعية بقاء ،ومن اقوى الوسائل الفعالة للسمو بحياة الفرد والمجموعة البشرية .

الشعور

من منا لم تتق نفسه وقتا ما لاستطلاع كنه ما يدور بعقل زميل له ولو كلفه ذلك ثمنا باهظا ، يدفعه عن طيب خاطر ؟ خذ مثلا لاعب البوكر المجازف بماله ، وصاحب الدكان الذي يحاول اغراء الشاري بشراء بضاعته ، والموظف الذي يراود نفسه بمفاتحة رئيسه ، في شأن زيادة مرتبه ، والمحلفين بالمحكمة ، حين ينظرون نظرة المستطلع النهم الى المتهم بالقفص ، الا تراهم ودوافعهم النفسية ؟ والحقيقة انه لا يوجد من يستطيع البقاء في مجتمع ما ، من غير ان يهتم بتفهم عقول افراده .

فماذا تفعل اذن ، حين تحاول ان تقدر شخصا قابلته لاول مرة ؟ وما الوسائل التي تستخدمها في ذلك ؟ لا شك انك ستحدق النظر فيه أولا : لتدرس مظهره الخارجي ، ولتلاحظ سلوكه ، وهذا ما يسميه العلماء طريقة الملاحظة . وهي طريقة صحيحة على شريطة ان تكون منتظمة وان تطبق بجد واهتمام . ماهي اذن العلامات والمظاهر التي تعتمد عليها أكثر من غيرها ؟ ستختلس طبعا ، كما يفعل شرلوك هولمز ، نظرة سريعة الى وجهه ، من عين نصف مغمضة . ثم تمعن النظر في ملابسه وحذائه وتجيل بصرك في بزته ، من غير ان تفوتك ملاحظة خاتم الزواج بأصبعه ، أو ابتسامته ، التي تنم عن اضطرابه ، أو أصابعه المصفرة من أثر

التدخين ، الى غير ذلك مما لا تفوتك ملاحظته . حتى اذا ارتاح واطمأن اليك ، صوبت اليه بضعة اسئلة ، بسيطة المظهر ، عميقة المخبر ، ثم انصت الى اجابته ، منتبها لما يرمي اقناعك بـه ، مـن صراحته وحكمتـه ، ولا تفتك طريقة اختياره لألفاظه ، واللهجة التي يعبر بهـا عن نفسه ، ونبرات صوته التي تنم عن تلطفه . وبناء على كل تلك التفاصيل الكاشفة ، التي سرعان ما يصنفها عقلك ، ويوازن بينها ، تصدر حكمك النهائي عليه وتقرر رأيك فيه .

تلك اذن هي المظاهر الخارجية التي تعتمد عليها بوجه عام . ويمكن تقسيمها الى ثلاثة اقسام رئيسية : المظهر الجسماني ، وتعبير الوجه والصوت والسلوك العام .

دعنا الآن ندرسها واحدا واحدا لنعرف الى أي حـد يمكن الاعتماد على كل منها ومقدار الثقة التي يصح وضعها في مثل تلك الاحكـام العاجلة . ولنبدأ بالمظهر الجسماني فنسأل أنفسنا السؤال التالي :

أنستطيع اصدار أي حكم أكيد على خلـق شخص مـن النظر الى بنيته او شكل جسمه ؟

هناك قول قديم في هذا الموضوع ، ومع انه أهمل من زمن بعيد ، فان التجارب الحديثة قد اثبتت انه كان حدسا ماهرا . لقد سمعنا كلنا عن النظرية العجيبة ، نظرية الامزجة . فكانت كلمة مزاج تعني عند القدماء سائلا او عصارة ، وكان يظن ان للسوائل التي بالجسم وظيفة مزدوجة فهي من ناحية ، تؤثر في نمو الجسم ولون البشرة ولون الشعر . ومن ناحية اخرى ، تؤثر في طبيعة الخلق ، بتنشيط انواع معينة من الميول والحالات النفسية الوقتية . وهكـذا نشأت الفكرة القـائلة ان الأمزجة النفسية نتيجة للسوائل التي في الجسم ، واستخلص من كل هذا اربعة

امزجة • فالبلغم يؤدي الى مزاج بلغمي ، ويتميز صاحبه بجسمه القصير الممتلىء وبشرته الباهتة السميكة • والدم يؤدي الى مزاج وشكل دمويين ويتميز صاحبه برفع القوام والشعر الاحمر والبشرة المحمرة ومن طبعه التفاؤل والسرور • والصفراء تنتج مزاجا صفراويا ، وصاحبه مصفر البشرة وشكله كهيكل الميت • والسوداء تنتج مزاجا سوداويا حزينا ، وصاحبه قاتم اللون ، مكتئب ، ينظر الى العالم بمنظار قاتم كذلك •

ذلك ملخص النظرية المذكورة ، ولكن ما مصدر تلك السوائل ؟ نعلم اليوم ان عصارات الجسم تأتي من اعضاء معينة تسمى بالغدد بعضها تبعث افرازاتها الى سطح الجسم ، كالغدد الدمعية وغدد العرق مثلا • ولكن هناك غدد أخرى ، ترسل عصاراتها في مجرى الدم ذاته ، فتسير معه في دورته • ولقد اجريت سلسلة من البحوث القيمة فدلت على ان تلك السوائل وما تحويه من مواد كيماوية ، تحدث تأثيرا يشبه تأثير المخدرات او المسكرات ولها تأثير بعيد المدى على الانفعالات والنمو الجسماني • وهكذا ثبتت لحد ما صحة نظرية الامزجة القديمة من حيث الاساس •

ولاضرب الان بضعة امثلة • كلنا يعرف ان نضوج الغدد الجنسية عند البلوغ ، يؤثر تأثيرا كبيرا في النمو الجسماني كما يؤثر في قوة بعض الغرائز والانفعالات • واذا خصي المرء وهو صغير ، امتنع نمو الشعر عنده ، وبقي صوته رقيقا ، كصوت الاطفال ، ونزع الى السمنة وبدت فيه مميزات الانوثة بوجه عام • واوضح مثل لذلك فعل الغدة الدرقية الكائنة في الرقبة تحت النتوء الغضروفي المعروف بالحنجرة ، وهي تشبه قطعة لحمية لينة الملمس • وقد تراها كبيرة متضخمة بشكل ظاهر عند بعض الناس فيقال عندئذ انهم مصابون بالتضخم الدرقي • فاذا كانت تلك الغدة شديدة النشاط كما هي الحال عند كثير من البنات الصحيحات في دور

البلوغ ، فان الفرد يميل الى التهيج الوجداني ويصبح كثير الحركة والقلق حتى لتمكن ملاحظة تلك الاعراض في بعض الاحيان عند أول نظرة سطحية. فبالاضافة الى التضخم البسيط في اسفل الغدة قد تبدو العينان كأنهما جاحظتان من شدة التأثر . ويلاحظ ان البنت التي هـذا شأنهـا ، تكون سريعة الحركة ، تندفع فجأة من عمل الى عمل اخر ، وتبكي او تضحك لأقل شيء وهي كثيرة الثرثرة كمـا تبدو عليهـا غالبا آثـار الهم الطويل الدائم من جراء مخاوف بالغة .

وعكس هذه الاعراض تلاحظ على مـن تكون غدتهم الدرقية خاملة او غير كاملة النمو . فتجدهم قصار القامة ، مكبوتي النمو ، وجوههم وجسومهم كوجوه الاطفال ، ولهم بطون بارزة وشعر نام في غير مواضعه الطبيعية ، طبعهم فاتر ، وشكلهم يـدل علـى الغبـاوة ووجداناتهم فاترة وذكاؤهم دون المتوسط بكثير . واذا اشتدت الحالة اصبح الشخص معتوها . وهذا هو النوع الوحيد من أنواع النقص العقلي الـذي يرجى علاجه . فاذا اطعم طفل هذا شأنه في سنواته الاولى ، خاصة مستخرجة من الغدد الدرقية ، فقد تتحسن حالته تحسنا ظاهرا ، فينمو جسمه نموا طبيعيا ، ويزدهر ذكاؤه وتنشط حركته ويستيقظ انتباهه . وهناك غدد اخرى عديدة ذات افرازات داخلية تؤثر كالسابقة في شكل الجسم كما تؤثر في الحالة العقلية الداخلية . ولذا فاننـا نستطيع ان نتمشى مع الرأي القائل بامكان معرفة ذكاء شخص او خلقه من النظر الى بنيـة جسمـه العامـة .

وتلك هي الطريقة الطبيعية التي يلجأ اليها الطبيب ، اذ يبحث عن الاعراض الجسمية ، لافي امراض الجسم فقط ، بل في الامراض العقلية ايضا . ولو انه في تلك الحالة سيبحث عن اشياء اخرى كثيرة غير الاعراض الجسمية المحضة .

ولقد ذهب بعض علماء النفس في الماضي الى انه من الممكن استنتاج خواص مزاج الاصحاء على اساس الفكرة السالفة الذكر • فاستنتجوا على الخصوص وجود صنفين من النـاس ، نسميهما علـى سبيل التبسيط النحيف والسمين ، على ان كلتا الحالتين ليست ناجمة عن قلة التغذية في الحالة الاولى وقلة الرياضة في الحالة الثانية وانما المفروض ان كـلا منهما تنجم عن التركيب الكيميائي للجسم ، اي طريقة اختزان الجسم للطاقة او النشاط • اما من حيث المظهر الخارجي ، فالاول نحيف القوام متخاذل الحركة ، عظامه طويلة وليست بالغليظة ، ولحمه لا يكسوه الا القليل من الشحم ونسبة رأسه الى جسمه أكبر من المعتاد ، ولا يتناسب حجم الجبهة مع الفكين بل يفوقهما • بينما الصنف الثاني ممتلىء سمين ، بدين ، هائل المنظر ، ذو وجه مستدير عريض •

ويقابل هذين الصنفين نوعان مـن الامزجة ، قد تعددت اسماؤهما ويصح ان نسميهما المتحفظ والمنفتح • اسماء اخرى يطلقها بعضهم كالمنطوي والمنبسط ، والرزيـن والخيـالي والذاتي والموضوعي ، والمكبوت وغير المكبوت • فالشخص الذي من الصنف الاول ، حاذق حساس محب للوحدة ميال للسكون ولكن عقله مليء بالهواجس • أبرز صفة فيه انـه قلما يكون بينه وبين غيره اتصال وجداني او روحي • والشخص الذي من الصنف الثاني ابطأ في التفكير والعمل ، ولكنه سريع فـي اظهار مشاعره ، وسريع التحول فيها ايضا ، كما انه عرضة لنوبات يفيض فيها شعوره ويتجلى فيها تعبيره عما يمتلكه من سرور أو حزن وقد يظهـر كأن لـه شخصيتين متعاقبتين • وفيما عدا ذلك فهو سهل الجانب محبوب ميال للاجتماع ، حليم ، طيب ، سمح الطبيعة ، حسن المعاشرة •

وكثيرا ما نصادف في كتب الادب تلك المقابلة بين النحيف المتحفظ والسمين المنطلق أو الصريح ، فيقول شكسبير : (هؤلاء النحفاء ذوو النظرة

الجائعة ، كثيرو التفكير ، وهم في الغالب مصدر اذى وخطر على حين ان السمناء ، المتلئي الجسوم ، ميالون الـى النـوم ليلا ، بشوشون كثيرو الكلام نهارا) * •

ولقد اصبح من الحقائق الثابتة اليوم ان الكثير من انواع الجنون عبارة عن تطور شديد في المزاج الطبيعي العادي الموروث عند المريض • وهكذا نجد في مستشفى الامراض العقلية ، صنفين متباينين ، يتنابهما نوعان من الامراض العقلية ، كثيرا الحدوث ، اولهما يسمى عادة (جنون التهيج والانقباض) ، والمريض به شديد التأثر ، فاما ان يهيج وينزع الى العدوان واما ان يستسلم لحزن عميق، فلا يقبل تعزية أو تنفيسا• وقد تتناوبه الحالتان ، والصنف الثاني يسمى (الخبل المبكر Precocious dementia) وأعراضه استسلام المريض في الظاهر وعـدم اكتراث لشيء مهمـا حاولت حمله عليه ، بينما هو في داخلية نفسه مفعم بالهواجس والاشجان الغريبة وهذان الصنفان ظاهران بين الاطفال • والمعلمون يسمون النـوع الاول هستيريين والثاني عصبيين ويلاحظون على المصابين بالمرض الاول ، رغبتهم الدائمة في الظهور امام الملأ واجتذاب الانظار بسوء السلوك ان لم يستطيعوا بحسن السلوك بينما المصابون بالمرض الثاني ، يقبعون في زاوية منفردة بعيدين عن الانظار، وتجدهم واجمين منفردين، فريسة للحياء، ينفرون اذا ما حاول أحد الاقتراب منهم ، كالمحارة المطبقة على نفسها • وهكـذا يلوح ان المزاجين المتناقضين السالفين ، المتفتح والمتحفظ ، اذا مـا تطورا بالغا وصلا بصاحبيهما الى حالتين مرضيتين • ولكن الـى أي حد يصح ان نعتمد على المظاهر الخارجية أو الاعراض الجسمية في تشخيص كل منهما ؟

للاجابة عـن هذا التساؤل ، اخذ بعض الباحثين في الايام الحديثة ،

---

* في يوليوس قيصر ، الفصل الاول ، المشهد الثاني ص ١٩٢ •

في زيارة المدارس والمستشفيات العقلية ، وجعلوا يقيسون اجسام الاطفال والمرضى واعضاءهم من حيث الطول والحجم، كما قاسوا قدرتهم العقلية العامة ليروا ان كانت هناك أية علاقة وطيدة بين الجسم والمزاج في كل صنف فنتج من البحث وجود علاقة حقيقية • غير ان الابحاث التي اجريت حتى الان ، تقول بضآلة تلك العلاقة ، حتى اننا لا نستطيع الاعتماد عليها وتطبيقها عمليا •

فمظهر الانسان اذن يعطينا فكرة بسيطة ولكنه لا يعطينا اكثر من ذلك • ولكن ما مبلغ دلالة الوجه ؟ نعم ان المشتغلين بدراسة الوجوه يستنتجون الشيء الكثير من شكل تقاطيع الوجه ، كالحاجب الغزير والانف الروماني ، والذقن المربعة الغليظة • ولكن الى اي حد يستطيع علماء النفس الاعتماد على هذا النوع من الملاحظة ؟ من المحتمل انهم يتأثرون به اثناء الفحص والتطبيق اكثر مما تبرره نظرياتهم • غير ان هنا نقطة يودون ان ينبهوا اليها ، ذلك انهم يعتبرون شكل الوجه جزءا من التكوين الجسمي العام للشخص ، وهو يتوقف لحد كبير على النمو الطبيعي للغضاريف والعظام ، وهذا يتوقف لحد كبير بلا شك على الوراثة والجنس ، ويتأثر لحد بسيط بصحة الفرد الخاصة ، وافرازات الغدد •

فاذا كانت هذه العوامل تؤثر في المزاج كما هو المعتقد ، فمن المحتمل اذن وجود علاقة بين المزاج وشكل الوجه وتقاطيعه • الا ان تلك العلاقة غامضة وغير مباشرة ، وفي اغلب الاحيان ضئيلة جدا ، على حين نجد من ناحية اخرى انَ أسارير الوجه أو تعبيره الذي هو نتيجة تقلص العضلات قد يدلنا على الشيء الكثير • فان تقاطيع وجهنا ثابتة لحد ما ، بينما تعبيره يتغير من لحظة الى لحظة، تبعا لحالات الانتباه، او القوة او التعب، وتبعا للمشاعر التي تستولي علينا في كل لحظة• وأهم من كل ذلك كله يجب ان تذكر ان كل انفعال بشري له مظهره الغريزي على الوجه ، وهو

الذي نستجيب له بشكل يكاد يكون غريزيا ايضا • فالرضيع في مهده يبتسم ويكشر ، وممثلة السينما تتصنع بوجهها مظاهر أعقد المشاعر، فتفهم انت توا وانت جالس تراقب أسارير وجهها على الشاشة البيضاء ، أي الآلام النفسية او اي انواع السرور يهيمن عليها • ثم ان الحالات الوجدانية الطارئة التـي تغلب عنـد شخص مـا ، يحتمل تبعـا لقانون العادات ان تترك أثرها في تعبير أسارير وجهه ، وذلك بتقلص العضلات الداخلية دائما وبتعميق الخطوط والتجاعيد التي بالجلد • وهكـذا نجـد ان الشخص الشرس ، السيء الطبع ، يبدو منظره في الغالب فظـا عابسا ، كأن عينيه تتقدان غضبا ، بينما القلق الحزين يرسم على محياه نظرة الهم •

غير ان الاختبارات الدقيقة تدل على ان تلك الاعراض اقل صدقا في الحياة العلمية منها في التمثيل البارع الذي نشاهده في أفلام السينما • حقيقة ان تعبير الوجه أصدق في دلالته من بنية الوجه أو الجسـم بوجه عام • الا ان هناك كثيرين لا ينم وجههم عن شيء ما • واني استطيع ان أعرض عليك لصاً في ريعان الشباب ، يخيل اليك مـن نظراته ، انـه أطهر القديسين ، واستطيع كذلك ان أريك محسنا ، بلـغ من شدة امانته ودقة ضميره ان يخيل للرائي الذي لا يعرفه ، ان نظرات ذلك الرجل العميقة ، تنم عن خبث شديد ، وانه لم يترك جرما لم يقترفه •

ولقد ابان لنا المذياع علامة جديدة ، الا وهي اختلاف الصوت • فالصوت كالوجه ، يتأثر حين يعبر عن الانفعالات ، فقد يكون المتكلم محتجبا عنك تماما ، ولكنك تعرف من صوته انه يعبر عن غضب او ذعر ، ملل او حيرة ، انتصار او يأس • ومن كثرة التكرار تتكون لهجة الشخص التي يعتادها والتي تنطبع بطابع شخصيته وطبقته في المجتمع ، فنستطيع ان نميز الصوت العسكري وصوت المحامي والكاتب والموظف وخريج جامعة اكسفورد او كلية ايتون • ان التفرقة بين صوت الشخص الكسول

الذي يتميز بالبطء والتهادي ومط ّ العبـارات وصـوت الشخص النشيط الوثاب ، لا يحتاج الى مران خاص • وان الاخصائي في علـم الاصوات ومخارج الحروف ، ليستطيع ان يسجل بالرموز خصائص اللهجات المختلفة وصفاتها • وقد يخترع علماء النفس يوما من الايام وسيلة يستطيعون بها ان يسجلوا ما بالكلام من وزن او موسيقى •

ولقد اجريت عدة ابحاث قيمة منذ بضع سنوات في قاعة الاذاعة فاختير اشخاص من مهن وحرف مختلفة ، وطلب اليهم ان يقرأوا صفحة امام الميكروفون وطلب مـن المستمعين أن يذكروا مـا يستنتجونه مـن اصواتهم والى أي حد امكنهم ان يستنتجوا شيئا عـن عمر المتكلم وخلقه وصناعته وهل هو ذكر ام انثى • فكانت النتيجة ان ٦٠ ٪ ممن اجابوا على الاسئلة التي وجهت اليهم ، امكنهم ان يستنتجوا تماما مهنـة جورج جرو سميث ، بينما مهنة ضابط الجيش لـم يعرفهـا سـوى ٢ ٪ فقط • ولكن اذا استثنينا هذه وما يماثلها من البحوث القليلة، نجد ان سيكولوجية الصوت لم تزل أمرا غير مبحوث •

نرى اذن ان علماء النفس قد بدأوا يبحثون تقريبا كل العلامات او الضوابط التي قد نميل للاعتماد عليها في حكمنـا • وكانت نتيجة ابحاثهم واحصاءاتهم ان قلت ثقتهم في طريقة المحادثة الشخصية عما يظنه أغلب من يعتمدون على تلك الطريقة• فرجال الاعمال وأعضاء اللجان والنساء اللواتي يفخرن بما لديهن من بصيرة ثاقبة ، كل اولئك كثيرا ما يعلنون الثقة في مقدرتهم على قراءة عقول الاخرين وهي ثقة لا يشاطرهم فيهـا كثير مـن العلماء • نعم ان طريقة المحادثة الشخصية يمكن ضبطها وتحسينها عما هي عليه الان ، باتباع بعض القواعد السيكولوجية • ومع ذلك فلن نستطيع ان نأمن لها تماما ، فالنتيجة التي نصل اليها اذن هي ان شكل الجسم وتقاطيع الوجه وتغيرات الصوت وكل العلامات التي ذكرناها قد تفيد في

ارشادنا ، ولكننا لا نستطيع الاعتماد عليها بصفة قاطعة • فأسلم طريقة لتقدير خلق شخص هـي ان تتلمس عقليتـه الداخلية المستترة ، بدلا من العلامات الخارجية الظاهرة ، وان نستنتج الصفات العقلية من العلامات العقلية لا من العلامات الجسمية ، وذلك هو الشعار الاساسي لعلمـاء النفس •

كيف السبيل اذن الى ذلك ؟ يلجأ علمـاء النفس الـى طريقة علمية أحدث من السابقة فبدلا من الاعتماد على الملاحظة يقومون بتجربة ، أو يجرون اختبارا سيكولوجيا • هب مثلا انك توجهت الى معمل من معامل علم النفس التطبيقي ، وطلبت ان تعرف أي الحرف أوفق لعقليتك ، أتنجح مثلا في المحاماة أم تستطيع ان تصبح موسيقيا ماهرا ، أم الافضل أن تمتهن الصحافة او الهندسة او التمثيل • لن تجد علماء النفس اذ ذاك يضيعون وقتا ما في دراسة تقاطيع وجهك أو بدنك ، بـل يعمدون الـى مجموعة من الاختبارات • وليس الغرض من تلك الاختبارات ان تكون مجـرد امتحان ولكنها في الواقع تقيس مواهب الشخص وقدرته • وأشهر تلك الاختبارات مقاييس الذكاء ، فبالاضافة الى انها أفيد الاختبارات من حيث القيمة العملية نجدها أجدر بالثقة من كل ما عداها • والذكاء يعني بـه علماء النفس قوة فطرية عقلية عامة • فهـي موروثة أو على الاقل فطرية لا تكتسب بالتعلم أو المران ، وهي عقلية لاوجدانية ولا خلقية ولايؤثر فيها الاجتهاد او الحماس وهي عامة لا خاصة ، اي انها ليست محدودة بأي عمل من نوع معين بل تدخل في كل اعمالنا واقوالنا وتفكيرنا • وهي أهم قوانا العقلية ، ونستطيع لحسن الحظ ان نقيسها بدقة وبلا عناء •

والفكرة الاساسية فيها هي استعمال مجموعة من المسائل المتدرجة في الصعوبة تبعا لاعمار من يستطيعون حلها ، وبذلك يمكن قياس ذكاء الشخص المختبر وتقديره بالعمر العقلي • فمثلا يستطيع الطفل الذي في

الثالثة من عمره ان يكرر رقمين ، والذي في الرابعة من عمره ثلاثة ارقام وهكذا حتى ستة ارقام ، وهي مسألة اصعب مما تظن ولا يستطيع ان يعيدها الا من بلغ الثامنة او التاسعة ، ولا يستطيع الطفل اعادة سبعة ارقام قبل الحادية عشرة ، أما ثمانية أرقام فتذكرها يجهد الراشد الذكي .

وهناك اختبار اخر يتطلب من الطفل ان يذكر الارقام عكسا وهو اصعب من السابق . ثم هناك اختبارات اخرى تتطلب من الطفل سرعة التفكير النقدي كأن تقرأ عبارة غير مفهومة او غير منطقية وتطلب من المختبر بيان موضع التناقض فيها ، مثل (رأى شخص اعلانا على حانوت يقول : اشتروا واحدا من مدافئنا المسجلة توفروا بذلك نصف ما تستعملونه من الفحم . فاشترى مدفأين ليوفر كل ما يستهلكه من الفحم) . ومثل تلك الاسئلة يستطيع الاجابة عنها المتوسطون من الاطفال الذين في سن الحادية عشرة .

وخير الاختبارات هي اختبارات التعليل التركيبي . وهي لا تقرأ على الطفل، بل يعطى بطاقة بها مسألة مطبوعة يترك ليدرسها بنفسه. وأبسط هذه المسائل يحلها طفل في السادسة أو السابعة ، ومن امثلتها (توني أسرع من جوني في الجري ، وكارل أبطأ من جوني ، فأي الثلاثة أسرع جريا توني ام كارل ام جوني ؟) وهذه يستطيع حلها متوسطو سن السابعة . وهناك مثال اخر (اذا تأخر القطار فلن يصل هذا الشخص في ميعاده ، واذا لم يتأخر القطار فلن يستطيع اللحاق به ، ولكنا لا نعرف ان كان القطار قد تأخر ام لا ، فهل نستطيع أن نعرف ان كان قد حافظ على ميعاده املا ؟) ومعظم الاطفال الذين في الثانية عشرة يستطيعون بعد تفكير قليل ان يصلوا الى حل تلك المسألة . والمثال الاتي يناسب الافراد الذين يسميهم الامريكيون الراشدين المتفوقين وهو (توني أرسلته امه في طلب سبعة ليترات من الماء واعطته ابريقا يسع ثلاثة ليترات ، واخر يسع خمسة ليترات ، فكيف يستطيع

توني ان يكيل سبعة ليترات بالضبط من غير ان يستعمل شيئا اخر غير هذين الابريقين ؟) .

قد تقول في نفسك ما أشبه ذلك بالامتحان المدرسي ! ولكن هنالك فرقا بينهما ، فان علماء النفس قد أخذوا طريقة المعلم الاعتباطية ، وحاولوا ان يجعلوها أقرب الى الدقة العلمية ، وذلك في ناحيتين . الاولى تقنين الطريقة ، والثانية تقنين النتائج .

فالطريقة التي تتبع في اعطاء الاختبار توضع خطتها بغاية الاحكام قبل البدء ، فلا يترك لكل مختبر حرية وضع الاسئلة في غير ما تؤدة ، او حسبما يمليه عليه مزاجه الخاص ،بل يبدأ علماء النفس بجمع عدد كبير من المسائل ، وقبل استعمالها للامتحان يجربونها على مجموعة من الاطفال لاستبعاد المسائل غير الصالحة ولتحسين ما يتبقى من حيث الموضوع والعبارة . ثم تقارن نتائج كل اختبار قصير بتقدير من يصح الاعتماد عليه في الحكم من المعلمين والذين يعرفون كل طفل معرفة تامة ، ولا تبقى الا الاختبارات التي تتفق وتلك التقديرات . وبهذه الطريقة يجرب علماء النفس اختباراتهم أولا ، ثم يأخذونها بعد انتقائها وتحسينها ويطبقونها على عدد أكبر من البنين والبنات في كل سنة من سني المدرسة ، ومن ذلك يستنتجون الاجابات المناسبة لكل سن ، ويعرفون حدود من هم (دون المتوسط) ومن هم (فوق المتوسط) كلا على حدة ، ثم يتبينون ايضا الفروق بين الجنسين اذا كان ثمة فروق .

وقد استعملت أمثال تلك الاختبارات بكثرة في الولايات المتحدة اثناء الحرب الماضية . فلم يكد يحشد الجيش الامريكي حتى رأت وزارة الحربية ان تنتقي في أقصر وقت ممكن من يصلحون للتدريب ليصيروا ضباطاً ، وأرادت من جهة أخرى أن تعرف من لا يؤتمنون على السلاح لغباوتهم ، فطلب الى علماء النفس اختبار كل مجند ، ولم تكد الحرب تضع اوزارها

حتى كان مجموع من اختبروا يزيد على المليونين • أما في انكلترا فان لجنة موظفي الحكومة وغيرها من الهيئات كثيرا مـا استخدمت مقاييس الذكاء كما يستعملها الان كل طبيب في المدارس لتمييز ضعاف العقول • وكثيرا ما استخدمها ولاة الامر في التعليم لانتقاء الاكفاء للمجانية بالمدارس الثانوية •

واذا قمت بجولة في معمل علم النفس ، وجدت اجهزة عجيبة لقياس القدرات العقلية الخاصة ، كالابصار والسمع والمهارة اليدوية والانتباه والذاكرة والخيال وما شابه ذلك • بل هناك من الاختبارات التي تقيس التقلبات الوجدانية مـا يحوز اعجابك • تعـال معي الى تلك الغرفة المظلمة واجلس في ذلك الكرسي الواسع المريح ، وضع يديـك على هاتـين الشريحتين المرطبتين • انهما طرفا دائرة كهربائية تصلان بينك وبين بطارية وجلفانومتر ولو ان المفروض انك لا تعلم عنهمـا شيئا • لـن اشعرك بهزة عنيفة وانما سأبعث في جسمك تيـارا بسيطا لا تشعر بـه أنت حين يقيس الجلفانومتر قوته وكيفية تغيره ، امـا تلـك النقطة مـن الضوء التي تروح وتغدو على ذلك المقياس المدرج فتدلنا على مقدار التيار المنبعث • والان نحن على أهبة البدء بالتجربة• انظر، أرأيت نقطة الضوء تجمح حتى جاوزت المقياس ، وما دفعها الا اضطرابك ، فعندما قلت لك : (نحن على اهبة البدء) ، أحدث ذلك عندك شيئا مـن التوتر والقلق ، والان وقد أخذت تهدأ تعود النقطة ثانية •

فذاك اذن استكشاف عجيب ، اذ يظهر ان كل موجة وجدانية تسمح لكمية أكثر من التيار بالمرور في الجسم ، وكلما زاد الوجدان ابتعد الجلفانومتر • فالان وانت جالس في كرسيك قد احدثك عـن امور كثيرة مثيرة متنوعة ، لأعلم مقدار تأثير كـل منها فيـك ، ولكن اختصارا للوقت قد اذكر بضع كلمات كهذه : طفل ، زواج ، وفاة ، معيار الذهب ، فتـاة

جميلة ، البطالة ، ضريبة الدخل ، املي جونز او (اسم خطيبتك) وهكذا •
نعم من المحتمل الا يبدي وجهك أثرا ما ، ولكن كلما صادفت موضوعا يثير انفعالاتك أخذت نقطة الضوء ترقص هنا وهناك ثانية دالة علــى زيادة في التيار الكهربائي الذي يمر بك •

ولا يكاد يصدق تلــك التجربة من لم يرها : ولكن اجراءها سهل ، فيستطيع تجربتها كل من يتوفر لديه جلفانومتر ، وما عليه الا ان يهيء الجهاز ويرى عمله بنفسه • ولقد اخذ البعض يعقدون الامل على ذلك الجهاز لكشف المجرمين الذيــن ارتكبوا اثاما ، أو لسبرغور الآلام التي تنتاب المرضى بأمراض عصبية • الا ان هناك عائقا جوهريا يمنع استعماله في الاحوال العملية ، اذ لم يهتد أحد بعد ، بصفة يقينية الي السبب المباشر في ذلك التغير الكهربائي • فيظن البعض انه راجع الــى ابتــلال اليدين بعرق لا يلحظ ، ويذهب اخرون مذاهب اخرى لم تمحص بعد •

تلك اذن هي الطرق التي يلجأ اليها علماء النفس لدراسة عقول الاخرين ، فهم يلاحظونهم ، لا بل يجرون عليهم التجارب فعلا وذلك اهم • وان هذا الاتجاه التجريبي لصاحب الفضل ، قبل كل ماعداه ، في جعل علم النفس علما من العلوم المعتمدة ، فلقد كان استخدام الاختبارات النفسية مقصورا منذ عشرين سنة على فئة من المبتكرين المتحمسين العاكفين في معاملهم ، المهتمين بالتربية او الطب او الادارة الصناعية او ميادين الخدمة الاجتماعية المختلفة • نعم لا يدعي احد ان تلك الاختبارات قد بلغت غاية الكمال ، غير اننا نرى كل عام باحثا جديدا يحسن من اساليبها ويزيدنا فهما لها ، أما ما لم يزل منها مشكوكا فيه أو مجهولا ، فهو على كثرته لا علاج له سوى الاستمرار المتواصل في الابحاث •

سيكولوجية الشعوب

هناك كثيرون ممن يعتقدون ان عمل العقل يختلف في الاجناس المختلفة ، وان التعاون الحقيقي ــ أوطنيا كان أم دوليا ــ انما هو أحلام نائم • ولقد سمعنا قائلا يقول : (انك لا تستطيع ان تقضي على المثل الاعلى البروسي الا اذا قضيت على البروسيين انفسهم) • وسمعنا قول الشاعر : (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي الاثنان ابدا) • فما هو المصير اذن؟ لو اجتمع الفرنسيون والالمان ، والصينيون واليابان ، والارلنديون والانكليز ، والرأسماليون ونقابات العمال ــ وكلهم أناس ذوو أصول ومصالح متغايرة ــ وجلسوا جنبا الى جنب في مؤتمرات يبحثون فيها ــ بشكل جدي ــ الازمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهدد العالم بالفوضى ، فهل هناك أية فرصة لنجاحهم ؟ ان المسألة في أساسها نفسية ، ولكن جوهر البحث ينصب على الاسباب أكثر من الحقائق ، فما من أحد يستطيع ان ينكر ان الشعوب والاجناس والطبقات الاجتماعية والاقتصادية تختلف في وجهات النظر العقلية • ولكن المعضلة التي نحاول حلها هي : أمثل هذه الخلافات أساسية غير قابلة للتغيير ؟ وما الذي يبقيها قائمة ؟ وهل هي مثلا ناجمة عن مزاج موروث ولشيء كائن في دم كل انسان لا تستطيع الجهود البشرية ان تغيره ؟ وهل هي تابعة لنوع من

الشعور الجمعي يوجد بالاضافة الى الشعور الفردي لكل شخص على حدة، ويقود ذلك الشعور الفردي ويحكمه بسلطة غير منظورة ؟ أم انها لا تعود الا لظروف انفصال عارضة ولحواجز تاريخية او جغرافية او اجتماعية سمحت لكل جماعة في الماضي ان تنمي لها وجهة نظر وتقاليد خاصة بها ، وان مثل هذه الفروق لا بد مختفية سريعا في المستقبل بزيادة الاسفار والتبادل التجاري في انحاء العالم وبتأثير الاذاعة التي تذرع الكرة الارضية ؟

هاكم ثلاث نظريات في تعليل هذه الفروق ادلى بها المفكرون في أزمنة مختلفة فلننظر أيها أحق :

الشعور الجمعي

لنبدأ بالرأي الذي يبدو أبعد عن المعقول في نظر الرجل العادي ، ولكن تمسك به كثير من علماء النفس والفلاسفة في أواخر القرن الماضي ، وهو رأي جميل جذاب يذهب الى ان مجموعة من الناس قد يكون لها روح ووعي خاصان بها ، فنحن نتكلم احيانا عن روح الجماعة وعن ارادة الشعب وعن قطر بأكمله يعمل كرجل واحد ، هـذه العبـارات ــ في نظـر هـذا الرأي ــ ليست مجرد مجازات حماسية ولكنها حقائق واقعية •

وأهم البراهين التي سيقت لتأييد هذه النظرية قائمة علـى موازنات مستمدة من الحياة الحيوانية او الفيزيولوجية، انظر ــ مثلا ــ الى الطوائف الاجتماعية التي تجدها بين الحيوانات الدنيا كالمرجان الوردي او الاسفنج الاصفر ، فكل من هذه الكائنات التي تحيا في البحر ليس حيوانا واحدا ولكنه مجموعة من الحيوانات ، ومع هذا فالمجموعة تتصرف كأنها مخلوق واحد • وقد ذهب هربرت سبنسر الـى ان الجمـاعة الانسانية يصـح ان ينظر اليها كأنها كائن معقد من هذا النوع ، اذ تسلك سلوكا واحدا مثل

المرجان او الاسفنج . واذا صح هذا فلم لا نخطو خطوة أبعد ، فنقول ان ذلك الكائن يجب ان يكون له عقل واحد ؟ كذلك راقب سربا من الطير يشق أجواز الفضاء أو جماعات مـن النحل تطن فـي سيرها حتـى تستقر على غصن قريب ، تجد كلا مـن هاتين المجموعتين يبدو منسجما في سلوكه متفقا في شعوره ، كأن فكرة واحدة تصرفه ، او غرضا واحدا يدفعه . واذ كنا نتكلم عن مجموعة من الناس كأن لها جسما ونقول ان اعضاءها يتصرفون كرجل واحد فلم لا نعلل عملهم هذا بأن الجسم له روح ؟

يحدث احيانا ــ وأنت تفلح حديقتك ــ ان تقع فأسك على دودة فتشطرها شطرين يتلوى ذانك الشطران كأنهما مخلوقان منفصلان . ولقد اعتاد البستاني ان يخبرني وانا طفل صغير ان هذين الشطرين احيانـا يتصلان ويصبحان مرة اخرى دودة واحدة لا اثنتين ، وأنه قطع مرة عشر دودات ووصل ما بين اجزائها فبدت كأنها دودة واحدة طولها اثنتا عشر بـوصـة .

فأنت اذن حين تشطر الدودة شطرين تقسم شعورها نصفين منفصلين وعلى ذلك فمن الممكن ان تتصور قياسا على هذا ــ على الاقل ــ انه كما يصح شطر شعور واحد نصفين يمكن كذلك ضم شعورين وجعلهما واحدا واذا صح في اثنين فلم لا يصح في مائة او مليون ؟

ويفترض بعض الكتاب ان كل خلية في المخ وكل كرة من كرات الدم انما هي حيوان دقيق قائم بنفسه ، له شعوره الخاص به ، وان الشعور العام للفرد كله ــ أنا او أنت مثلا ، ينتج ــ كمعجزة ــ من تضام هذا الشعور المتناثر المستقر في خلايا اجسامنا .

فهل هناك ــ اذن ــ روح عليا خاصة بكل شعب وبكل طائفـة

اجتماعية ؟ هذه نظرية يتعذر نقضها . * ولكن هناك صعوبتان ظاهرتان : اولاهما انه يجب ـ على مقتضى هـذه النظرية ـ ان يكـون لدينـا عدد هائل من الارواح، فمدينتا برمنغهام وليدز ومدرسة هارو وجامعة اكسفورد وفريقا الكرة في نيوكاسل وارسنال ، وكل نقابة عمال ، وكل لجنة وكل مجلس قروي وكل حشد في الشارع ، كل واحد من هذه يجب ان يكون له شعوره الخاص به ، وما أعرضها من دعوة ! ثانيتهما اننا ـ حين نفترض هذا الفرض ـ ننسى ان الجسم ، لكي يكون جسما حقيقيا يجب ان يكون وحده مادية ، وان تكون هناك رابطة عصبية فعلية بين أجزاء مخـه المختلفة حتى (التوأمان السيامان) لهما عقلان لا عقل واحد . وأخـال البستاني الذي تحدثت عنه سابقا قد ظن ان ديدانه العشر قـد اصبحت واحدة لمـا عاشت معا في سلسلة حية واحدة . ونحن في العادة لا نزعم وجود شعور واحد الا اذا كانت اعضاء الجسم متصلة اتصالا فيزيولوجيا .

لست ادعي ان اي هذين الاعتراضين يهدم وجهة النظر التي ذكرناها ولكن النقطة الجوهرية في الموضوع هي : الا يمكن تعليل الحقائق وشرحها شرحا اكثر سهولة بدون هذه النظرية ؟

هناك شيء يستحق تحليلا ادق ، ذلك هو خصائص سلوك الجماهير الذي يوحي لاول وهلة بوجود شعور جمعي او ارادة جمعية . فمعظم هذه الخصائص اذا تدبرته وجدته منبعثا من خطوتين نفسيتين لا شك في وجودهما : احداهما تعرف احيانا باسم (المشاركة الوجدانية الفطرية) ويصح ان تعتبر لحد ما تقليدا وجدانيا لولا ان لفظة التقليد قد تعطي فكرة

---

* نشرت مقالات متعددة في الصحف والمجلات الانكليزية تهاجم بيرت العالم وبيرت الرجل ، أهمها ما نشرته جريدة الصانداي تايمز الانكليزية في ١٢ تشرين الاول ١٩٦٩ ، حيث وصف بالتطرف والتزمت ، علاوة على اتصاله بالجناح اليميني وبعض فئات التفرقة العنصرية .

المترجم

التشبه المتعمد بدلا من الاستجابة الفردية العمياء • والحقائق الاساسية في هذا الصدد هي : انه في معظم الحيوانات الاجتماعية يكفي مجرد تعبير عضو واحد من القطيع عن غريزة ما لاستثارة تلك الغريزة في سائر القطيع • خذ الطيور مثلا فالعادة ان تستثار فيها غريزة الهرب عند ظهور كائن غريب خطير، ظهورا مفاجئا كقط يسترق الخطى أو صائد يحمل بندقية • ولكن هذه الغريزة نفسها قد تستثار في الطيور التي لم تر العدو بمجرد رؤية الطيور الاخرى هاربة • واذا صاح غراب ورفرف بجناحيه ، حذت بقية الغربان حذوه • وبنو الانسان يخضعون لنفس الظاهرة • ابتسم للرضيع يبتسم لك وابك تراه يبكي • تثاءب أو اسعل تر جيرانك يتثاءبون ويسعلون • واذا كان امامك ـ لافرد واحد ـ بل مجموعة من بضع مئات رأيت التعبير الوجداني يسري جيئة وذهابا مـن كل وجه ، والتأثير ينتشر انتشار النار في البرية ويزداد قوة وشدة في سريانه •

وفي هذا بعض اسرار خطابة الجماهير وعدوى الجماعات • فاذا ابتدأت طائفة من المشايعين والمأجورين تهتف وتصفق للخطيب رأيت بـاقي الحاضرين يصفقون • واذا ابتدأ احد الناس يضحك شاهدت الباقين تنفرج شفاههم عن الابتسام دون ان يكونوا قد سمعوا النكتة أو فقهوها ويظهر الممثل الهزلي على المسرح فيقص حكاية ليست بذات بال فتهتز لهـا جوانب المكان • ويضحك لهـا النظارة ضحكا عاليا ، فاذا مـا اخذت هذه الحكاية نفسها وقصصتها على صديق بمفرده ، وقعت على مسمعه عادية هادئة لا تهز ولا تثير ! وزعيم الجماهير المحنك ـ كالممثل الخبير ـ يعرف كيف يستغل هذه الميول المعدية فتراه يبدأ باثارة الانفعالات التـي يشترك فيها كل سامعيه ، وما هـي الا لحظـات حتـى تشتد المشاركة الوجدانية فلا تلبث ان تجد مئات الرجال والنساء في القاعة قد اصبحوا شخصا واحدا • والذعر وتدافع الجماهير يخضع لمثل هذه الظاهرة • فاذا ثبت

نار في ملهى ما ، واندفع قليل من الجالسين في البهو نحو الخارج في جلبة وانزعاج ، سرى الرعب سريعا في جمهور الطبقات العليا من المكان دون ان يكونوا قد رأوا بعد دخانا او لهيبا ، واندفعت الجموع الى الابواب يدوس بعضهـا بعضـا • كذلـك الحروب والثـورات وتخطف الارواح والاسلاب تنبعث عادة من مثل هذه التأثيرات حيث يهيج أعضاء المجموعة بعضهم شعور بعض • وهذا الميل التقليدي يعمل عمله أيضا — بطريقة أقل ظهورا — في تقويم لوازمنا الفردية ، فيجعلنا نتشابه في الملبس وفي التفكير • ونعتنق نفس الافكار والمثل العليا ، حتى لنتوافق في اللهجة والعبارات • واذن فلسنا بحاجة في تعليل سريان الشعور الى الزعم بوجود روح واحدة تتملك الجماعة • بل يكفينا ان نفترض ان تعبير احد افرادها عن انفعال ما يثير في الباقين هذا الانفعال •

فالمشاركة الوجدانية الفطرية تكفي اذن في تعليل وحدة العمل في المستويات العقلية الدنيا — لدى الحيوانات الاجتماعية وفي خليط غير منظم من الرعاع • فاذا مـا صعدنا الى مستوى أعلى وجدنا أثـر عامل اخر هو الشعور الذي ينشأ في كل عضو عن الجماعة التي ينتمي اليها • فالطيور لا تنظر الى سربها من حيث انه سرب والافـراد المزدحمون لا ينظرون الى جمهرتهم من حيث هي جمهرة ولكن الافراد في مدرسة او في جيش او في شعب ما ، لديهم فكرة واضحة عن المجموعة المنتظمة التي تضمهم — فذلك المجموع في نظرهم له مثل عال أو غرض محدود ، وهم معنيون به ولهم به هوى واعجاب وهم يحرصون على سعادتـه وبقائه ، يعطونه اسما ويتحدثون عنه فيما بينهم ، وينمو عندهم حبه والولاء له • فحب المرء لوطنه قد يغلب حبه لنفسه ، حتى ان البطل ليضحي بحياته من اجل ذلك الوطن • هذه العاطفة او الشعور بالعطف نحو الجماعة ، هي التي يبنى عليها مـا يسميه الناس ارادة الجماعة فعندما تتكلم — اذن —

عن الجماعة التي تستخدم ارادتها انما نعني في الحقيقة ان افرادها يستخدمون اراداتهم المختلفة في اتجاه واحد ولصالح المجموع • وهم انما يستطيعون هذا لان كل فرد يشعر بالهيئة التي ينتمي اليها ويعتبر اغراضها اغراضه هو نفسه • وعلى هذا فالتعبير بالشعور الوطني او الارادة الوطنية لا يفهم منه ان الشعب في مجموعه كائن شاعر له عقل خاص او روح خاص ، بل يتضمن ان لكل من افراده شعورا بالشعب الذي يكونه •

هنا ـ اذن ـ اتجاهان يحدوان نحو غاية موحدة ، فهل هناك ظروف قابلة للتحديد يجب توفرها قبل ان يصل كل من هذين الاتجاهين الى غرضه ؟ ان المبدأ الثاني يستلزم ـ على الاقل ـ المقدرة على تفهم الافكار المجردة ، اذ ان فكرة الوطن ليست الا تجريدا • وهو يستلزم ايضا قدرا خاصا من الاتحاد بضم المجموع كله ، لايمكن بدونه ان ينظر الى المجموع باعتباره كلا واحدا • هذه الوحدة ـ من ناحية ـ تنبعث من الغريزة الاجتماعية التي تجمع الافراد وتبقيهم معا ، ولكن تحققها في شكل أوسع يجب ان يعتمد ـ لحد ما ـ على محاسن الصدف في التاريخ والموقع الجغرافي • فالامة مجموعة تحتل مساحة معينة من الارض ، تتكلم لغة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة ولها ذكرى مشتركة من المحن والانتصارات وتمجد نفس العظماء من رجالها • الا ان كل هذا يتوقف على شرط أعمق منه هو تجانس الاعضاء ، فالحظيرة التي تضم حية ونمرا وفيلا وزنبورا لا يمكنها ان تعمل متحدة كقطيع من الجاموس او الذئاب ، ومع ذلك فلكل فرد من افراد هذه الحظيرة شعور خاص به ، فلم لا تمتزج كل هذه الانواع من الشعور ؟ ظاهر انه ليس بينها مصالح مشتركة او غرض موحد او وسائط للاتصال • اما قطيع الذئاب فيمكنه ان يتحد ضد عدو مشترك • وكذلك الشرذمة من

المتوحشين يمكنها ان تكون من انفسها قبيلة • فواضح على هذا ان الشرط الاساسي لوحدة العمل ليس امكان وجود الروح العام ، بل الصفات المشتركة المبنية على السلالة المشتركة •

وراثة الاجناس

لنختبر — اذن — هذا التفسير الثاني الذي يرجع الطابع الوطني في الحقيقة — لا الى شعور وطني بالمعنى الحرفي — بل الى وراثة وطنية ، اي الى تركيب عقلي خاص يشترك فيه كل عضو من أعضاء الجنس •

فأولا — ما هو الدليل على ان هناك وراثة جنسية ؟ انه ما من احد يفكر ان الاجناس تختلف في جسمانها وان الفروق الجسمانية لا تنمحي لانها فطرية • تمش قليلا في شوارع أي مدينة كبيرة : ذلك الرجل الصغير الخفيف ذو العيون الخمصاء واضح انه من اليابان ،وذلك الشاب المليح العنبري اللون لا شك انه طالب هندي • وهذا الزنجي ذو الصوت العميق وذلك الصيني ذو الوجه المستدير كالقمر وذلك اليهودي بلثغته الخفيفة ، كل اولئك تعرفهم اول ما تراهم • حادثهم واحدا بعد واحد تجد انهم يختلفون في طبعهم كما يختلفون في جسمانهم ، فالزنجي السريع التأثر والصيني الصموت ، والتاجر اليهودي بحبه للنقود والموسيقى — كل اولئك يبدو كأنه يحمل في عقله وجسمه على السواء طابع الجنس الذي انحدر منه •

لنقصر انفسنا لحظة في اوروبا لنرى الى أي حد يمكن ان ترجع الخواص السيكولوجية لكل شعب الى فرق في التركيب الجنسي • هنالك انواع عدة من الشواهد تبعث في مجموعها على القول بان سكان اوروبا اليوم ينسلون من ثلاثة اجناس متميزة وهذه — من غير شك —

تنقسم فروعا وتتشابك انواعا لا عدد لهـــا • وقد قامت الادلة حديثا على ان الثقافة لا تتطابق دائما والتفرع الجنسي مطابقة تامة كما كان يظن في الماضي • ولكن لنأخذ تفسيرا بسيطا من تفسيرات هذه النظرية الثلاثية ، ونسائل أنفسنا الى أي حد يمكن ان نستعين بها •

أ ــ اذا صرفنا النظر عن الافراد القلائل الذين يزعم انهـــم من أعقاب انسان العصر الحجري الاول ، نجد ان اول واقدم جنس اوروبي موجود يظهر انه كان يتألف من اقوام قصار القامة سمر البشرة ذوي رؤوس طويلة ضيقة ووجوه بيضاوية مستطيلة ، بلغ من سمرة لـــون شعرهم وعيونهم وبشرتهم ان سموا احيانا (الجنس الاسمر) • مثل هذه الانواع توجد الان بكثرة في جنوبي ايطاليا واسبانيا • ومن ثم كثيرا ما اطلق عليهم اسم (جنس البحر الابيض المتوسط) ، وربما كان أبسط من هذا تسميتهم بالجنس الاوروبي الجنوبي • وافراد هذا الجنس يشبه تركيبهم الجسماني في كثير من الوجوه تركيب افراد العصر الحجري الجديد ، الذين خلفوا وراءهم عددهم الحجرية المصقولـــة وهياكلهـــم القصيرة وجماجمهم الطويلة المدفونة في نجاد او مصاطب طويلة • ولقد كانت التواريخ الانكليزية القديمة تسمي اهـــل هـــذا الجنس (ايبريين) ويظهر ان سلالتهم تكون اليوم العنصر الرئيسي من سكان انكلترا الذين يتكلمون اللغة (الكلتية) وهم فـــي بريطانيا موجودون علـــى الخصوص في الغرب في مقاطعات (كورنول) و (ويلز) • وفي الجهات النائيـــة من ايرلنده واسكتلنده • والمظنون ان اسلافهم هنا وفي مقاطعة (بريتاني) قد تركوا تماثيل ضخمة من الحجر ــ غير المسوى ــ تلك الكتل والدوائر الحجرية الغريبة التي ترى في (ستون هيج) •

ب ــ خلف من بعد هؤلاء السكان الاولين جنس ثان ليسوا في درجة هؤلاء من القصر او السمرة ، يمتازون على الخصوص برؤوسهم

العريضة المستديرة ووجوههم العريضة المربعة واجسامهم البدينة ، وميلهم الظاهر الى السمن • وهناك بعض قرائن تدل على ان قبائل رحالة من هذا النوع كـانت تتجول تجوال ابراهيم بقومه فـي طلب الخصب والمرعى ، جلبت معها العلم بالغلال والحيوانات المستأنسة واستعمال البرونز الى غربي اوروبا • وقد تكون هذه القبائل نزحت من آسيـا المغولية مدفوعة بالقحط وقلة المـاء ، وفي الحق ان وجوههم العريضة لتذكرك لاول نظرة ببعض الاجناس المغولية • وقد استقر هؤلاء في مواطنهم الجديـدة يفلحون الارض ، وهـم يتمثلون في صورة (جون بول) الفلاح الخشن • وان الصور التي ترسمها الصحف الهزلية للرجل البروسي او الروسي ذي الرأس الكروي أو الجمجمة القائمة على استقامة العنق لتمثل الملامح المميزة لهذا النوع ، مبالغا فيها الى حد (الكاريكاتير) • أما ممثلوهم اليوم فانك واجدهم حول الالب ـ فـي المانيـا وعلى الخصوص نحـو الجنوب ـ وفي أواسط فرنسا وفي الجزء الاكبر مـن روسيا الاوروبية • وربما كان الحيثيون القدماء واليهود المحدثون بعض فروع هذه الشجرة • ويظهر ان بعض هؤلاء الغزاة شقوا طريقهم الى هذه الجزر البريطانيـة وجلبوا معهم اللهجة (الغالية) الاولى مـن اللغة الكلتية وعلموها السكان الاولين ، ثم بادوا هم أنفسهم • وانك لتجـد جماجمهم المستديرة مدفونة في مصاطب مستديرة وغالبا ما تجد معها سيفا من البرونز في شكل ورقة الشجروبجانبها كأس شراب تحتوي زاد الارواح في رحلتها الى العالم الاخير • وهكذا نستطيع على الرغم مما بين عوائد الاجناس المختلفة مـن تداخل وتشابك أن نقول ـ بصفة عامة ـ ان هؤلاء الاقـوام ذوي الرؤوس المستديرة هم رجال العصر البرونزي ، وهم يعرفون بأسماء مختلفة كالالبيين والكلت والكات السلافيين • ولكن يظهر ان افراد هذه الاجناس الثلاثة الرئيسية قد تكلموا يوما ما نوعا من اللغة الكلتية ولذا ربما كانت احسن تسمية لهم (أجناس اوروبا الوسطى) •

واخيرا جاء ـ في موجات متعاقبة من الغزو ـ أقوام طوال ، صهب الشعر زرق العيون ذوو رؤوس طويلة ضيقة ووجوه ضيقة كذلك ، ويقال انهم كانوا أول قوم استأنسوا الخيول ، وقد خلفوا بركوبهم اياها ذعرا وارتجافا في قلوب القبائل الاصلية ، تمثلا في اقصوصة (السنطور) ذلك المخلوق الخرافي المتوحش الذي له من الانسان رأسه وجزعه ، ومن الفرس جسمه وقوائمه • ولقد انحدر هؤلاء الاقوام في اسراب من براري روسيا الجنوبية ، وغزوا بلاد اليونان واستوطنوا ـ في أزمنة تاريخية متطاولة ـ سهول اوروبا الشمالية والاقاليم الشاطئية المحيطة بالبلطيق • وهم يشبهون شعوب البحر الأبيض في ان لهم رؤوسا ضيقة ، ولكنهم يختلفون عنهم في انهم شقر الالوان لا سمرها • لهذا يزعم بعض الباحثين ان شعبة من جنس البحر الابيض المتوسط ساحت في الارض شمالا ، فأصبحت شقراء بعد ان كانت سمراء ، كما يتحول الدب الاسمر فيصير ابيض في الجهات القطبية • ويقال ان من بين هؤلاء الصهب الشعور رؤوساء قادوا المهاجرين الكلتيين ـ كما يسمون ـ الى الجزر البريطانية ، وجلبوا معهم اللغة السمرية او الكلتية المتأخرة وبعضا من المعارف عن استعمال الحديد • ونستطيع ان نقول على الاجمال انهم هم اهل العصر الحديدي الاول • وقد ذكرهم (يوليوس قيصر) ووصفهم بانهم مردة غلاظ صهب الشعر • وسماهم الكتاب المتأخرون (بريطون) • وهو اسم لا يزال البريطانيون يحتفظون به في فخر واعجاب• ومن نسل هذا الجنس الحجري الطويل القامة السكسون والدنمركيون والاسكندنافيون، والفرنك واللومبارديون، والنرمان والقوط الشرقيون والغربيون • وقد اكتسح هؤلاء كل اوروبا والجأوا الاجناس القديمة الى الاعتصام بالمرتفعات السحيقة واشباه الجزر المنعزلة •اما انقى ممثليهم في العصر الحاضر فانك تجدهم في بلاد السويد والنرويج فلو انك وضعت سويديا بجانب اسباني لتجلى لك التباين في الحال ، فالاثنان

يتفقان في طول الرأس والوجه ، ولكن السويدي طويل اشقر والاسباني قصير اسمر • اما في انكلترا فانك لا تزال تجد رجالا من النوع الطويل الاشقر الشعر في الشرق والجنوب • على انه يظهر ان اقواما يشبهون هؤلاء جسما قد هاجروا بطريق الماء الى مقاطعة (كمبرلاند) في ايام (الفيكنجز) واستوطنوا هنـاك التـلال وجوانب البحيرات • كل أولئك شعب من الجنس النوردي أو التيوتوني • واذن فربما كان أبسط اسم لهم هو (أجناس شمال اوروبا) •

هذه ـ اذن ـ صـورة تقريبية مبسطـة للاجناس الرئيسية الثلاثة التي استوطنت القارة الاوروبية : جنس شمال اوروبا ، وجنس الجنوب وجنس الوسط • ويظهر اننا في هذه الجزر (البريطانية) منحدرون في الاغلب من الجنسين الاولين • اما (جون بـول) وذوو الرؤوس المستديرة فيظهر انهم قد انقرضوا تقريبا • ونحن في الاغلب قوم ذوو رؤوس طويلة وذوو وجوه طويلة كذلك ، أقرب الـى الطول والشقرة في الجنوب والشرق ، والى القصر والسمرة في الغرب والشمال ، وقـد شهدت القرون الحديثة كثيرا من التنقل والارتحال ، حتى ان الانسان ليتوقع ان يؤدي تزاوج الاجناس المختلفة الى الامتزاج التام بـين العناصر الاولى ، مما يترتب عليه زوال الفروق الجنسية ، الا في الجهات النائية غيرالمطروقة • غير ان هنالك قرائن تدل على انه ـ حتى عند تزاوج جنسين اشقر واسمر ـ تميل الخصائص المميزة الى ان تنفصل احيانا طبقا للقوانين (المندلية) في الوراثة : ففي أول جيل تتغلب فـي العادة صفـات الشعر الاسود ، وهي الصفات الاخذة الان في الازدياد في المدن (وربما كان لذلك اسباب اخرى) ، أما في الاجيال التالية فقد وجد ان النوعـين يتميزان تماما • فليس مـن الضروري ـ اذن ـ ان يترتب علـى الزواج اندماج النوعين وامتزاجهما في الاحفاد والاعقاب •

غير ان السؤال الذي يعنينا في مقامنا هذا هو : هل تجلب هذه الفروق الجسمية معها فروقا عقلية بينة ؟ ان صح هذا امكن ــ الى حد كبير ــ تعليل التفاوت بين شعب وآخر • فلننظر اولا الى الفروق العقلية • لقدطبقت اختبارات الذكاء على مجموعات ممثلة لكل جنس من الاجناس الاوروبية تقريبا • وهذه الاختبارات يقصد منها ان تقيس الخصائص الفطرية او الوراثية • غير ان اختلاف اللغات يجعل الموازنة بين النتائج عسرة (الا في الاحوال التي استعملت فيها اختبارات عملية غير لفظية) • ولقد يختلف علماء النفس في طرائقهم ، فهذا يستعمل طريقة وذاك اخرى ولكن يظهر ان البحوث ــ على وجه الاجمال ــ متفقة في النتائج : فاذا اعتبرنا طوائف المجندين المختلفين نماذج ممثلة تمثيلا عادلا لاوطانهم الاصلية ، كان لنا ان نستنتج ان الاجناس الصهباء الشعر هي الاذكى وان الاجناس القصيرة السمراء الشعر اقل ذكاء • ولكن هذه التعميمات التي تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الاجناس الارية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الاخذ بها على علاتها • حقيقة ان ذكاء الزنجي المتوسط في الاختبارات التي طبقت الى الآن لا يبلغ الا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ، ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب •

على ان هذه الفروق بين الاجناس مهما تميزت وتحددت فانها ليست قط على درجة من العظم : فما لاحظناه بين الذكور والاناث ينطبق هنا ايضا على الاجناس المختلفة • فالفروق الواسعة في الذكاء بين الافراد المنتمين الى شعب واحد اوسع وابعد مدى من الفروق بين شعب وآخر • فاذا أردنا فروقا بينة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها في الطبع او المزاج •

وهنا لانجد مقاييس علمية نستعين بها ولكننا نعتمد على الملاحظة

ومـا تكونه مـن فكرة عـامة ، وهمـا دليـلان غـير مأمونين . وعلى هذا فلنرجع الى ثلاثة مـن الاجنـاس الاوروبية العظيمة . ان السـائح الانكليزي لتبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة: فاولئك الاجناس الجنوبيون ذوو الشعر الاسود قوم سريعو التأثر محبون للاجتماع كثيرو الكلام قليلو التريث مندفعون يفيضون حركة وحسن بديهة . وهم — بدورهم — اذا وصلوا الـى انكلترا قالوا انـه يخيل اليهم انهم أتوا الى شعب من التماثيل الشمعية . فالشمالي ذو الشعـر الاصهب يبـدو لهـم مخلوقا أبكم بلغمي المزاج مستقلا متحفظا — والمادح الراضي — بالطبع — يصفنا بأننا رجـال عمل أقوياء صامتون الى حـد مـا ، فاذا مـا استثيرت نفوسنا صدرت عنـا اعمال قوية عظيمة . واذا عبرنا عـن هذه التفرقة في لغة علماء النفس الحديثين قلنا ان الجنوبي منبسط extravert والشمالي منطو او منقبض introvert * : فالاول يظهر ما يبطنه ، ميال للتفتح ، سريع الاستجابة للعالم الخارجي ، والثاني يكبت انفعالاته ويبدو مشغولا بنفسه ، مركزا تفكيره فيها .

ويبدو لك هذا الفرق واضحا في الاداب والفنون : انظـر — مثلا — الى التباين الظاهر بين معبـد اغريقي او روماني وبـين الكاتدرائيات القوطية فـي منشستر وشارتر ، وبين شعر سوفكليس أو دانتي أو راسين

---

* هذان الاصطلاحان extravert,introvert من وضع العالم السيكولوجي يونغ الذي يقوم مذهبه على تقسيم الاشخاص الـى صنفين سيكولوجيين : احدهما منبسط او متجه بفكره واهتمامه الى الخارج ، والثاني منقبض أو منطو على نفسه ، ينبع تفكيره من الداخل ويتجه اهتمامه الـى الباطن . وقد توسع يونغ في تفصيل هذين الصنفين حتى أصبحـا ثمـانية اصنـاف تمثل سلسلة متفاوتة الدرجات في الانبسـاط والانطواء . ويمكنـك ان تجد امثلة هذه النماذج بين الشعراء والعلماء والفلاسفة وغـيرهم من طوائف الناس .

وشعر شكسبير او غوته أو بايرون • ثم ما ابعد الفرق بين موسيقى جونو أو جلوك وألحــان بيتهوفن أو فــاغنر ! ومــا أكبر اختلاف صور رفائيل وبيرو جينو وبوسان وانجرس مــن صــور رمبرانت أو دورو او ترنــر أو بليك ! وفنون الرســم والبناء والشعر والموسيقى تميــل ــ فــي كلتا ايطاليا وفرنسا ــ نــحو النوع الكلاسيكي ، اما في المانيا وانكلترا فتغلب على هذه الفنون الناحية الرومانسية • ففنون المجموعة الاولى شكلية عقلية ذات تقاليد ، تعبر عن نفسها في وضوح واتزان وهدوء ، اما الثانية فجامعة غير متزنة ، تقوم على التأمل الباطني ، وتتدفق ثورة ومبالغة• وفن الاولى فن عام فن قوم يعبرون عن شعورهم لغيرهم في طلاقة وصراحة اجتماعية • وفن ايطاليا صاف مشمس كمناخها ولكن فن الشمال مثـل جو الشمال معتم متقلب • والواقع ان الكثيرين يعتقدون ان جو الممالك المختلفة ومناخها مسؤول عن أمزجتها وطباعها •

أما الاجناس ذات الرؤوس المستديرة في اواسط اوروبا فلهــا شأن خاص ولقد قيل ــ وبعض القول موضع للمناقشة ــ ان ميل هؤلاء الاقوام ليس الى الفن والادب قدر ما هو الى التنظيم والعلم • وربما كانوا في خلقهم وسطا بين الجنسين الآخرين : فبينا أجنــاس الشمــال ذوو الرؤوس الطويلة والوجوه الشقراء مخاطرون محبون للتمكين لنفوسهم جوالون مستعمرون من الطراز الاول ، اذ أصحاب الرؤوس المستديرة أقوام ثقال محبون للاستقرار صبر مقتصدون مهرة في التنظيم يهتمون بالنقود وما يمكن ان يشترى بها ، وهم الى التقليد والخضوع اميل منهم الى الابتكار والحريــة •

ويمكن لمــن يحبون الضوابط الموجزة ان يلخصوا هــذه الفروق المزعومة بان يقولوا : ان رجل شمال اوروبا مخلوق عملي • ورجل الوسط

مخلوق نظري • ورجل الجنوب مخلوق وجداني • الاول يتجه الى العمل والثاني الى الحقيقة والثالث الى الجمال • والصنف الاول يؤلف شعبا من أرباب المتاجر والثاني من الفلاسفة ، والثالث من الفنانين •

ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فان حقائق الطبيعة الانسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد • نحن لا نشك في ان هنالك فروقا عامة ، ولكن من غير الراجح أن تتطابق هذه الفروق وتلك الاقسام تمام التطابق • فالاراء التي لخصتها هنا ليست إلا آراء فرضية لا يصح ان تؤخذ على انها حقيقة، ولكني أعرضها أمثلة لنظريات نادى بها علماء النفس في وقت ما • فلا تستنتجوا مما ذكرت ان شعبا من الشعوب يتصف كل افراده بهذه او تلك من السجايا والصفات ، او انه يمكنكم ان تحدسوا حدسا صائبا عن المزاج الموروث عند الرجل من مجرد الملاحظة لشكل رأسه او لون شعره •

مثل هذه الاراء التي ذكرتها كانت رائجة كثيرا قبل الحرب العالمية الاولى : ففي فرنسا مسيو جوبينو واتباعه وفي المانيا مستر هوستون تشمبرلين واخرون كانوا يقولون ان الفروق في وجهات النظر القومية ، وما يترتب من نجاح دولة او فشلها ،يمكن ان يتنبأ به من النظر في تركيب أجناسها القاطنين بها • والمدنية — في زعمهم — تدين بكل شيء للآريين، فكل ما هنالك يرجع الى شعوب (جافا) البيضاء والى الشعوب الهندو — اوروبية في الشرق والغرب ، ولا شيء مطلقا يرجع الفضل فيه الى الحامية السوداء في الجنوب ، والقليل — أو ما يشبه العدم — يرجع الى الاجناس الصفراء في الصين واليابان ، واقل من لاشيء يرجع الى الاجناس السامية في فلسطين وبابل ومصر • ومن المعلوم ان الالمان — من بين الشعوب الآرية — قد برهنوا لأنفسهم برهانا يرضونه على ان (التيوتوني) أنبل الناس جميعا ، وان النجاح ميراثه ، وان قومه هم الشعب المختار ، وانه

خلق لينتصر ويخضع اللاتيني الهزيل الخنث في ايطاليا واسبانيا وفرنسا •

والحق ان الفكر الانكليزي كــان دائما في شك من أمر الخصائص الجنسية الفطرية • فنحن في هذه البلاد قد ملنا نحــو الرأي المعارض ، واعتقدنا في قوة التنشئة والتقليد اكثر من الوراثة والجنس •

التقاليد الاجتماعية

والآن وصلنا الى الاخير من الشروح الثلاثة التي ذكرتها في مستهل كلامي : ذلك ان العلة الاساسية في الفروق بين الشعوب انما هي العادات والتقاليد التي تتوارث من الماضي على ممر العصور فتشكل جيلا بعد جيل بواسطة المنزل والمدرسة والادب القومي وكل العوامل الدقيقة في الحياة اليومية • ولقد صرح (لوك) عالم النفس البريطاني القديم ــ مثلا ــ ان كل طفل يولد مرنا كقطعة من الصلصال اللين ، قــابلا لأن يتشكل بالتربية والبيئة المحيطة به ، وليس له طابع محدود خاص به • وقد جاء (مــل) والكتاب الاولون الذين توسعوا فــي هــذا المذهب فأرجعوا كل الفروق العقلية الى اثر البيئة الاجتماعية • وأرجعها (بكل) في كتابــه العظيم (تاريخ الحضارة) الى البيئة الطبيعية : فالاسكتلنديون أشــداء نشيطون لأنهم يعيشون فــي الجبــال ، والزنوج كسالى مبذرون لأنهم يسكنون المناطق الحارة الوفيرة الخيرات • وقد لاحظ المؤرخون مرة بعد اخرى ان آراء هؤلاء الفلاسفة البريطانيين ــ التي اعتنقت في صراحة قليلة أو كثيرة ــ قد لعبت دورا كبيرا في تقرير السياسة البريطانية نحو الامم غير المستقلة لا سيما الهند وشعوب الشرق •

والان اظن ان النقطة التي نستطيع التسليم بها هي انه لا الجنس وحده ولا البيئة الجغرافية وحدها ، بمستطيعة تعليل التفاوت البين بين المدنيات المتعاقبة • فيكفي ان تتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية

على نصف ممالك اوروبا لترى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد وراء الجنس أو البقعة التي أنبتتها • والا فهل يصح ـ لمجرد اننا نستعمل في انكلترا كلمات لاتينية ونخضع لقانون روماني ـ ان نستنتج اننا متحدرون من الكتائب المغيرة التي جلبها هنا (يوليوس قيصر) ؟ لا ضرورة لمثل هذه الفروض الجامحة • فهناك عمليات ابسط تلعب دورها • والناس يشبه بعضهم بعضا ، لا لانهم تحدروا من اصول واحدة فحسب ، ولا لانهم اشتركوا في وطن او مناخ واحد ، بل لانهم ايضا قلد بعضهم بعضا ، او اقتدوا بمثل عال مشترك •

غير ان (التقليد) كلمة تشتمل ميولا مختلفة كثيرة ، فهي في ابسط مظاهرها كما رأينا تعتمد على نوع واحد من المشاركة الوجدانية الاولية التي يمكن اعتبارها ـ الى حد ما ـ غريزية • فلنستعملها هنا ، طلبا للاختصار ، في كل تلك العمليات التي تنطوي على محاكاة فرد أفكار فرد اخر او مشاعره او اعماله • والتقليد بهذا المعنى شرط أساسي لكل حياة عقلية جمعية ، فالفرق الرئيسي بين الانسان والحيوانات العليا هو ان مقدرته على التعلم اعظم كثيرا من مقدرتها ، وانه بهذا الاستعداد يستطيع ان يتعلم ، لا من تجربته هو فحسب بل من تجارب الاخرين ايضا • وهو يفعل هذا من طريق القبول اللاشعوري لنموذج ما ، اكثر من القبول الشعوري لبرهان ما وهكذا ـ شيئا فشيئا ـ عن طريق تشرب التقاليد المحيطة يكون سكان المساحة الواحدة المحدودة جماعة متجانسة، ويتقدمون معا في المعرفة والاختراع ، ويتعودون عادات متجانسة من الاعمال •

وتتضح لنا جيدا اهمية مثل هذه الخطوات اذا تصورنا ما يحدث لو جرى تبادل عام بين السكان ، افرض ـ مثلا ـ انه على اثر حرب عالمية جديدة ، نقل كل اطفال انكلترا الى المانيا حيث يدرجون بين الانظمة الالمانية ، يتكلمون اللغة الالمانية ، ويقرأون الكتب الالمانية ، ويحاطون

بالمؤثرات الالمانية مــن كل جانب ، وهب كل طفل الماني أرسل منذ ولادته الى بلادنا هذه (انكلترا) لينشأ على ثقافة انكليزية خالصة ! يخيل الي في هذه الحالة انه ــ رغم الفرق الجديد في المزاج الجنسي القطري ــ لن يكون هناك تغيير مفاجيء يمكن ان يلاحظ في العادات او وجهة النظر العقلية ، فالاطفال الالمان يقلدون آباءهم الجدد من الانكليز ، وخصائصهم القومية الموروثة لا تبدو الا في مظاهر بسيطة تافهة وكل تغير يجد على البلاد نتيجة لهذا يكون بطيئا تدريجيا لا سريعا او انقلابيا • فوزن التقاليد يرجح في المبدأ تأثير الدم او التكوين العقلي الجديد ولا يكشف الثــاني عن آثاره الصغيرة المتجمعة الا خلال قرن أو قرنين •

ان الحيوانات لــم تنطور الى طوائف مختلفة اختلافا بينــا الا عن طريق تغيير طبيعتها الموروثة ، وهذه طريقة من طرق التقدم بطيئة جدا • اما الانسان فقد كان تقدمه اسرع وفي اتجاهات مختلفة : كان ذلك عن طريق التغيير والزيادة في مجموعة المعتقدات والافكار والعادات التي توارثها بالتقليد جيل بعد جيل • وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الان تعتمد في أساسها على هذه العناصر التي ترجع الــى التقاليد • فاذا أخذ شعب ما مدنية جزء آخر من أقاصي العالم ــ كما أخذ اليابانيون مثلا ثقافة الغرب وامريكا ــ استطاع ولو في الظاهر ان يغير خصائصه تغييرا كليا •

غير ان هناك حدودا لمثل هذه التغييرات وهذا هو الوضع الذي يبدو فيه الاثر الدقيق لمزاج الشعب الموروث • وانك لتستطيع ان ترى هذا واضحا كل الوضوح في الانظمة السياسية والدينية : ففرنسا ــ مثلا ــ قد اصبحت جمهورية ولكن الفرنسيين لم يظهروا تحــت ذلك النظــام الجمهوري الا قليلا من الابتكار وابراز الذات اللذين تراهما ظاهرين ظهورا قويا في جمهورية الولايات المتحدة • وعندما رفعت فرنسا عن

كاهلها نير الملكية لـم تتخلص مـن نظامها المركزي فـي الحكومة ، ذلك النظام الذي بلغ حد الكمال في عهد لويس الرابع عشر ونابليون • او خذ مثلا من الدين مما يعزم علماء النفس بايراده : ذلك ان الديانة البوذية اصبحت في حكم المنقرضة في مسقط راسها ــ وهي الجهات الواقعة على جوانب نهـر الغانج ــ وحلت محلها بالتدريج الديانة الاسلامية ، التـي تقدمت من الشمال الغربي حتى البنغال ، والتي يخبرنا كبير من علماء الانسان انها اكثـر تمشيا مع طباع الهندوس ومع اعتقادهم في القضاء والقدر • او انظر ــ مثلا ــ الى الفرعين العظيمين اللذين انقسمت اليهما المسيحية في غرب اوروبـا : البروتستانتية المستقلة استقلالا حيا متحفزا ، والكاثوليكية الرومانية وما يصاحبها من طاعة للسلطان وحب للالـوان والموسيقى ، وانظر كيف يجـري هـذا الانقسام طبقـا لتوزيع الاجناس الاوروبية وانقسامها الى شماليين وجنوبيين •

نحن ــ اذن ــ مضطرون للاعتراف بنصيب من الحقيقة لكل من النظريات الثلاث التي ناقشناها : فالوراثة الجنسية والتقاليد العامة والوعي الاجتماعي الذاتي كل ذلك يلعب دوره في اعطاء الشعب أهم مقوماته •

ويمكننا الان ان نلخص مجرى التطور القومي فيما يلي : لا شك ان فروقا عقلية توجد بين شعب واخر والموروث من هذه الفروق غالبا دائم غير متغير وهي فروق صغيرة نسبيا الا انها على صغرها لا بد ان تكون قد لعبت دورها في تقرير الاتجاهات العامة المتباينة التي سارت فيها الثقافة والعادات • ثم ــ عندما اخذت الهجرة والسفر والتبادل الدولي تجلب معها اذواقا وافكارا جديدة من البلدان الاخرى ــ ابتدأ نوع من الانتخاب الطبيعي يعمل عمله فتشرب كل شعب ما وافق مزاجه الخاص ، ورفض أو عدل ما لم يلائمه •

ان العرف والانظمة والعادات التي يتخذها قوم ما ــ لانها تنبعث من

طبعهم الاساسي او تلائمه ـ تأخذ هي بدورها في التأثير على ذلك الطبع وتقويته وتدعيمه عن طريق التقاليد المتجمعة • واخيرا عندما يشعر الشعب بوجوده يبدأ في تحديد أغراضه الخاصة بـه والتحدث عنها وبهذا المعنى يصبح العقل القومي واعيا وشاعرا بنفسه معا • الا ان هذا الشعور ليس له محل الا في الافراد الذين يكونونه • فليس يلزم عليه ان تكون هناك شخصية جمعية أو روح وطنية ولكنه ككل انواع الجهد الشعوري يقود الى اسرع طرق الرقي والتقدم •

واذا صحت هذه النتيجة ترتبت عليها بعض اثار عملية : فمن الواضح ان ذكاء الاجناس ومزاجها قد يفرضان على كل مجموع انساني بعض القيود الصغيرة ، ولكن ليس هناك من سبب يمنع الثقافة والعادات من ان تغير او يعاد تنظيمها داخل دائرة هذه الحدود المفروضة • فكما اننا في هذه الجزر البريطانية مزجنا اثنتين ـ ان لم يكن ثلاثا ـ من الفصائل الانسانية المختلفة وكونا منها شعبا واحدا ، فكذلك في اوروبا بل في الكرة الارضية كلها قد نستطيع ان نجمع كل السكان في نظام متحد ونعطي ذلك النظام طابعا أو صفة خاصة بـه • وهكذا نصل في النهاية ـ لا الى شعور قومي فحسب ، ولا الى مثل عال خاص بكل وطن على انفراد ـ ولكن الى شعور عالمي والى مثل عال ينظم الجنس الانساني كلـه •



حاسة الجمال

هل الجمال في الواقع موضوعي ، ومم يتألف ؟ ما هي بالضبط تلك الخاصة التي تمكننا حاسة الجمال من ادراكها ؟ اين نضعها ، او تحت اي باب ندخلها بين الموضوعات الاخرى التي يحتويها عقلنا ؟

قبل كل شيء هناك شيء واضح وهو اننا حين نتكلم عن حاسة الجمال، لا يكون الجمال في الاصطلاح الدقيق حسـا ، اذ اننا لا ندركه عن طريق عضو حسي مخصص لهذا الغرض كما خصصت العين للالوان والاذن للاصوات . كذلك نستطيع ان نقـول ان الجمال ليس صـورة ذهنية أو فكرة او مجرد حزمة من الروابط . وتسميته شعورا او احساسا انما يزيد المسألة غموضا لغموض كلمة (احساس Feeling) وعدم تحديد معناها . فلنسأل اذن ما هي الفرص أو المناسبات التي ندرك فيها الجمال ؟

انما يبعث الحس بالجمال عندما ننظر الى موضوع مركب الى درجة ما . فالحس البسيط لا يستطيع ولن يستطيع ان يبعث جمالا . انظر الى صفحة بيضاء من الورق ، أو الى حقل قد كساه برد الشتاء ثوبا أبيض رقيقا، ان مجرد البياض مهما كان صافيا لا يمكن ان يكون جميلا ، انه قد يبعث لذة كما تبعثها رائحة سويق البرقوق ، أو ذوق طبيخ اللحـم الهشيم ، على ان ومضة من اللذة ليست حسا بالجمال .

ولكن خذ قطعة من الورق وقسمها الى مربعات واشكال رباعية فانك لا تلبث ان ترى ان بعض الاشكال جميلة ، وان بعضها اجمل من بعض • اجمع كل الاطراف والاوراق وصفحات الكتب وبطاقات الزيـارة التي يمكنك ان تعثر عليها ، وسترى من السهل عليك ان تقرر اي الاشكال اكثر اناقة وايها يبدو ثقيلا او مستكرها • لقد كانت هذه تجربة قام بها لأول مرة منـذ مائة سنة الفيلسوف الالماني (فخنر) الذي يسمـى احيانا أبا علم النفس التجريبي ، فقد جاء بمستطيلات متنوعة الابعاد ، وعرضها على أشخاص كثيرين ثـم أخـذ منها مـا فضله المختبرون ، وقاسه قياسا دقيقا •

وقد بدأ اذ ذاك ان الفرق في الجمال يتوقف الى حد ما ، على النسبة بين الطول والعرض وكانت هناك من بين النسب نسبة تشرح الصـدر دائما ، وهي التي يحصل عليها مما يعرف (بالقطاع الذهبي Golden cut) وفي هذه الحالة تكون نسبة البعد القصير الى البعد الطويل كنسبة الطويل الى مجموع البعدين • وان صفحة من ورق الفولسكاب ٨ بوصات × ١٣ لتوضح هذه النسبة توضيحا يقرب أن يكون دقيقا ، فان $\frac{٨}{١٣} = \frac{٣}{٨} + \frac{١}{١٣}$ وفي الوضع الطبيعي للصليب في شكله المعهود تستطيع ان تتبين نفس النسبة • فجمال الشكل اذن يتوقف على علاقة ، هي العلاقة بين الجانبين أو المقطعين اللذين يكيفانه •

انك بالطبع حين تميز عينك شكلا او منحنيا رقيقا لا تقوم بعملية حسابية ولا تقيس النسب قياسا دقيقا • وأنا فـي الواقع أشـك فـي ان تكون النسبة ـ او ينبغي ان تكون ـ على هذه الدقة الحسابية ، وكل ما اذهب اليه هو ان هناك نوعا من النسبة او نوعا من العلاقة ، ففي كثير من الاحوال ـ ان لم يكن في شكلها ـ تبدو النسبة العددية المنطبقة على

ضابط معروف الية عديمة الحياة • وازن مثلا بين قطاع من دائرة مضبوطة كالتي ترسمها بالفرجار ، وبين التغيرات الرقيقة التي يحدثها غصـن مياس مـن أغصان الاناناس ، فالاولى ميتة ، والثانية حية حياة طريفة • بـل أي منحن رياضي يرسمه عالم الهندسة في دقة وحساب يمكن ان يوازن بالخطوط السريعة الشاملة التي تنثرها هنا وهناك ، في حركة حرة جريئة ، ويد فنان دقيق الحس صناع ؟ ليس هناك من شك في ان مثل هذه الخطوط لها نسب ولكنها من الدقة بحيث تخفى علينـا ، وان لهـا انسجاما ولكن انسجامها قائم على حركة لا شعورية حـرة ، ولا يمكـن التعبير عنه فـي نظام من التحليل الجبري معروف •

لننتقل الان الى موضوعات اكثر تعقيدا ، ولننظر ان كانت القاعدة السابقة تصدق عليها • طف في انحاء لندن أو أيـة مدينة أخرى كبيرة ثم اسأل نفسك : اي مبانيها اكثر جمالا ! انها ليست المنازل التي طليت بأزهى الالوان اوراقها ، وليست الزخرفة مهما عظمت وثقل حملها بكافية في ان تخلع على البناء جمالا ، والرسوم البارزة والتماثيل العظيمة التي تعلو بناء الاوبرا في كنزوي (ويعرفه معظم الناس الآن باسم Stoll Picture Palace) لا تحيل ذلك البناء الشاهق الى عمل فني • استمر فـي طوافك فربما وقع اختيارك مثلا على صالة الحفلات في وايت هول ، حيث خطا شارل الاول من هناك خطواته الاخيرة الى الموت ، وربما وقع اختيارك علـى واحد من منازل الاطباء البسيطة بجوار شارع هارلي ، فأين يكون الجمال ؟ انه يجيء من نسب العرض للارتفاع ، من الاشكال والحجوم المتناسبة في النوافذ والابواب ، ومن الطريقة التي تنظم بها تلك على واجهة البناء • يجيء من علاقات مشابهة كل الشبه لتلك التي تبيناها عندما نظرنا الى صفحة الورق والى الصليب ، والنظرية التي اوحت بمثل هذا البناء هي : (ان جمال اي بناء يتألف من نسبة مضبوطة ــ بين اجزائه بعضها وبعض ــ

وبين الجزء والبناء كله ، فان البناء الجميل يجب ان يبدو جسما كاملا تاما يتناسب فيه كل عضو والعضو الاخر ، وينسجم فيه العضو والجسم كله حتى ليبدو وجود ذالك العضو حتمي الضرورة لوجود الجسم) . هكذا كتب (بالاديو) في سنه ١٧٥٠ . والمبدأ الذي قرره يمكن تطبيقه على كل عمل من اعمال الفن .

لقد اخذت الى الان امثلة بادية الوضوح . ولكن حتى في الابنية لا تحتاج النسب الى ان تكون في هذه البساطة وذلك الوضوح اللذين نراهما ماثلين في فن العصر الكلاسيكي أو عصر الاحيـاء . فان كاتدرائية سالزبري او كلية مودلين وبرجها لا تقل رقة وجمالا . ولقد يبدو الفن هنا لأول نظرة أقل انتظاما وان بدا أكثر رواء ، ومع ذلك فترتيبه مصدر جماله وان كون هذا الترتيب لا شعوريا او قريبا من الصدفة والاتفاق ليستثير ادراكنا له ويزيده قوة . وكل ترتيب انما يستلزم علاقة بين بعض الاجزاء وبعض . وبينها وبين الكل الشامل .

هناك الفاظ كثيرة استعملت لتدل على هذه الحقيقة الاساسية التي أقررها ، ومن هذه كلمتا توازن وانسجام . ولكن هذه الكلمات لا توضح نفسها تماما ، ان كلمة توازن تشير على العموم الى مجرد تعادل ، فأنت تعرف الطريقة التيينظم بها الناس الاشياء فوق المدفأة : الساعة في الوسط يحفها من الجانبين زهرتان صينيتان ، ثم صورتان في اطاريهما ، كل واحدة في طرف . هنا تجد العلاقات ظاهرة ظهورا مزعجا فهي ليست سارة ولكنها مؤلمة والتوازن بهذا المعنى الحرفي خشن فضولي يفرض نفسه فرضا . ونجد مثل هذا النقص في بعض الموسيقى والشعر والنثر حيث التأليف الحي مصنوع طبقا للقاعدة . العب السلم الموسيقى من C C الى C C ثم العبه عودا على بـدء تجد اتزانا كاملا ، ولكـن لا يستطيع أحـد ان يقول ان هنا لحنا كاملا . فالتوازن الحقيقي في الموسيقى ، اذن ، لا يتألف

من مجرد نصفين يكون كل منهما صدى للاخر ، بل يجب ان يكون هناك طرافة دائمة، ومع ذلك فالاجزاء الطريفة يجب ان تتناسب والاجزاء التليدة كذلك الحال في الشعر فانك ان تطع النبرات اطاعة عمياء لم تنتج إلا" هراء شبيها بنظم تلاميذ المدارس يدق كالساعة المعلقة دقات رتيبة . ومع ذلك فاطاعة الوزن اساسية في تعريف الشعر على شريطة ان يكون اطاعة حرة غير شعورية لا خضوعا شعوريا او مفروضا . ان القصيدة يجب ان تكون بحيث يحس قارئها انه يمكنه تقطيع ابياتها اذا اراد ، ولكن هذا التقطيع العروضي يجب الا يطرق اذانه طرقا عنيفا بل يجب ان يحسه هو ضمنا كاللحن الخفي من غير ان يعمد اليه ويتنبه لـه تنبهـا محدودا . أما كيف يمكن ذلك فسنرى بعد قليل .

الآن نبـدأ ندرك مكـان الادراك الذوقي بـين الادراكات الاخرى للعقل ، فقد اهتدى علـم النفس الى ان العقل بجـانب ادراكه الحسوس والمشاعر والانفعالات ومـا أشبهها ، لديه المقدرة علـى ادراك العلاقات . ونحن نعلم الان ان احساس الجمال عندنا يتوقف في جوهره على ادراك الموضوعات أو الحسوس ـ من أشكال وألوان وأصوات بـل وحوادث وانفعالات ـ في علاقات معينة . والحسوس التـي لا تسمح بعلاقات البتة او لا تسمح بالقليل منها كالشم والذوق مثلا تكاد لا تستطيع ان تكون أساسا لتذوق فني ان لم تكو"ن موضوعا لفن من الفنون .

وقد لاحظنا كذلك ان العلاقات نفسهـا يمكن ان يكـون بين بعضها وبعض علاقات ، وهذا هو مـا يحصل بالضبط في العمل الفني ، فان نسيج العلاقات التي هي نفسها متعلقات ، يؤلف مـا يمكن ان نسميه نموذجا أو هيكلا . والذي يكون جوهر الجمال هو وجود هذا النموذج الهيكلي الضمني أو ان شئت فقل وجود نوع مـن النظام أو الترتيب ليس سطحيا ولا دخيلا ولكنه طبيعي حي كالخصائص التي تقرر نمو النبات .

فوظيفة العلاقات اذن هي ان توجد الاجزاء وتجمعها في كتلة او شيء واحد ، وعلى هذا فالفكرة الرئيسية في بناء أو تصوير أو تمثال مـا تقرر العلاقات العامة للأجزاء ، وهـذه العلاقات بدورها تفرز العلاقات الفرعية ، وهكذا الى القطعة الاخيرة من الازميل او اللمسة النهائية من الفرشاة الى ان يصبح الكل وحدة عضوية حية •

لقد أدرك الكتاب السابقون هذه النقطة عندمـا تكلموا عـن التنوع والوحدة واعتبروهما الشرطين الحتميين في الموضوع الجميل ، فالموضوع يجب ان يؤلف كلا واحدا ، اي يجب ان يجري خلاله نوع من الوحدة ومع ذلـك فيجب ان يكون خلال هـذه الوحدة تنويع فـي الاجزاء أو المراحل • وعلى هذا فالخط المستقيم لا يمكن قط ان يكون بنفسه جميلا فله وحدة ولكن ليس به تنويع والخطوط المتناثرة التي ترقمها يد طفل غير نجيب مجردة كذلك من الجمال فهي على تنويعها ليست لها وحدة •

وهناك تجارب تقوي هذه النقطة الرئيسية : لقد كان السابقون من علماء النفس يقولون ان المنحنيات اجمل من الخطوط المستقيمة ذات الزوايا أو النقوش المختلطة المرسومة بلا اكتراث لان المنحنيات تتطلب في ادراكها حركة سهلة على العين ، وكان يقال ان خطوط التأليف في الصورة المحكمة الوضع تقود العين • اما الان فقد صورت حركات العيون وهي تنظر الى الخطوط او الصور فوجد ان هذه الحركات نفسها قليلة الصلة او عديمتها بالمنحنيات التي زعموا انها تتبعها ، وانما تنفرج الحركات هنا وهناك في حين اننا نكاد لا نشعر بالمرة بهذه الحركات التي تعلمها حدقات عيوننا •

فالذي ثبت انه مهم كل الاهمية ليس حركة العين ولكن حركة الانتباه، والانتباه في أساسه يتوقف على مقدرتنا على ان ندرك شيئا مـن العناصر مجموعة في نظام موحد • وانما يحب الشخص الصورة أو القصة أو اللحن حينما تكون هذه معقدة ومنوعة لدرجة يبقى بها الانتباه دائم النشاط، ولكنها مع ذلك يجب ان تبقي مظهر الوحدة قائمة ، تستعين بهـا جهوده في الفهم

الانتباهي ، فلا تنهزم أمـام التعقيد والتنويع • لهـذا السبب تجـد العقل البسيط يحب الاسجاع البسيطة والاوزان البسيطة والصور الظاهرة البسيطة وتلك الطريقة المتعادلة البسيطة طريقة حشـد أدوات الزينـة فوق المدفأة • أما عند العقل اللبق فلحن الانشودة الدينية مـن السهولة بمكان والسيمفونيا ليست كبيرة الصعوبة وهو يفضل اوزان شكسبير الحرة المعقدة على أهازيج لونجفلو السهلة المرحة • وهو يحب مـن الرسوم ما قام هيكله على نظام مقرر ، على شريطة الا يكون ذلك الهيكل ظاهرا ظهورا ثقيلا وان يجيء نتيجة الحس الخالق لا متكلفا طبقا للقواعد التقليدية •

غير ان حركة الانتباه تحليلية في حين ان وجود الجمال الحقيقي يطرق احساسنا في لمحة الطرف • فهنا ، كما ترى ، لغز سيكولوجي آخر هو : اذا كان حكمنا على صورة ما قائما على ادراكنا للكل وهذا الادراك تقتضيه العين المدربة في طرفة واحدة ، فليس لدينا اذن الوقت الـذي نلاحظ فيه الاجزاء ، دع جانبا كشف العلاقات •

ان المعضلة تحل على اساس حقيقة اخرى لا شك فيها ، كشفها علم النفس الحديث ، وقد يكون فيها شيء من الغرابة ، ذلك ان العقل يستطيع ان يدرك كلا معقدا في حركة واحدة من حركات الانتباه ، وهذا شأنه على الدوام • وقد اصبح من الممكن في المعمل بالاستعانة بأجهزة ماهرة ان يقاس الزمن اللازم لالتقاط الفهم نموذجا معقدا ، كلمة مثـلا كلفظة برمنغهام ، والزمن اللازم لتعرف شيء اكثر بساطة ، حرف واحد مثلا كالحرف E او O وقد وجد ان الزمن في كلتا الحالتين تقريبا وهو $\frac{١}{٥}$ ثانية ، وانت في هذه اللحظة تتعرف الالفاظ والمعاني بنفس هذه الطريقة السريعة •

كان فحوى النظرية القديمة ان الطفل يجب ان يبدأ بالحروف المنفصلة ثم يتدرج الى جمعها معا في النظام المناسب فيبدأ مثلا بالحرفين f,a ويكون

منها fa ثم الحروف t, h, e, r فيكوّن منها ther وبعد ذلك يكوّن من الجميع father اما الان فكل معلم يعرف ان هذه ليست الطريقة الطبيعية لتعلم القراءة أو الكلام ، وانما الطبيعي ان يبدأ بالنموذج اللفظي الكامل . وكذلك الشأن في ادراك أي شيء، فلست تقول مثلا (اني أرى شعرا أسود وأسنانا قاضمة تحملها أربع أرجل وأرى ذنبا في الطرف الآخر) ولكنك تقول : (اني ارى كلبا) ، وعقلك اذ يدرك الكلب يلم الماما شبه باطني بالاجزاء المتنوعة والطريقة التي تؤلف بينها لتجعل منها شكلا شبيها بالكلب .

وشبيه بهذا ادراكك الجمال ، فعندما تستمع الى لحن موسيقي ، لا تستطيع ان تتريث حتى تدرس العلاقات بين كل صوت والذي بعده ومع ذلك فهذه العلاقات نفسها هي التي تخلق اللحن وتخلق جماله . فانت تفقه العلاقات في طريقة لاشعورية ، أو كما أفضل ان أسميها ، في طريقة ضمنية، وبهذا تتعرف الطابع العام في كل محكم النظام ذي مغزى .

هنا يبدو اننا نصل الى الفرق الجوهري بين الفكر المنطقي والادراك الجمالي ، بين النظر العقلي والذوق الفطري ، بين تتبع مناقشة علمية واختطاف لمحة من الشيء الجميل . فأمامنا في كل من هذه نظام من العلاقات ، وهذه العلاقات نفسها مترابطة بحيث يتألف منها كل منظم ، ولكننا في الاول من كل زوج من الازواج المذكورة نعمد بانتباهنا الى العلاقات نفسها نأخذها واحدة بعد اخرى في نظامها المتعاقب ، اما في الثاني فاننا نعمد بانتباهنا الى النموذج العام نمسك به في ومضة واحدة . واذن فقد يكون الموضوع واحدا ، ولكن طريقة الابصار تختلف : فعالم النبات يفصل الزهرة قطعا واجزاء ، ولكن الفنان يريك اياها زهرة حية . وعالم التشريح يشرح لك الجثة الميتة حتى عظامها المترابطة ، أما المثال فيعطيك اللحم النابض محولا الى رخام فيه حياة . وعالم النفس يخبرك

بكل ما هنالك عن التجربة الانفعالية ، ولكن الشاعر يعينك على ان تحيا تلك التجربة ، وعلى ان تستحوذ عليها وتجعلها ملكا لك • فالعلم تحليلي والفن تركيبي ، العلم صريح والفن ضمني ، العلم مجرد والفن ملموس •

اننا الآن مندفعون اندفاعا نحو تقرير احكام عامة شاملة غير متحفظة • ولكن لنخاطر فنخطو خطوة أخرى على سبيل المحاولة ، يبدو ان علم النفس يزداد ميلا الى اعتبار العلاقات ذات وجود حقيقي ، فهي هناك ؟ حتى عندما نعجز عن ملاحظتها أو تحليلها ، وهي موجودة وجودا موضوعا ، أي انها مستقلة عن وجود شخص يدركها • والواقع ان العلاقات مهما بدت مجردة وعزيزة المثال ، فهي في رأي الكثيرين ، العناصر التي لا شك فيها في هذا العالم ، والنقط التي لا يمكن ان يخامرنا فيها أدنى ريب • فنحن قد نختلف في وجود المادة ، وقد نناقش ، امكان بقاء اللون أو الضوء او الصوت ، ولكن العلاقات بين هذه النواحي ، او بين الاشياء الخفية التي تمثلها ، هي التي تكوّن اساس كل اعتقاد • خذ مثلا بعض العلاقات الاكثر وضوحا والتي يمكن العقل ان يدركها ، كعلاقات المكان او الزمان ، اننا على يقين من ان هذه قائمة ، سواء ادركناها ام لم ندركها ، فادنبرة باقية شمال لندن على حين ينام كل مخلوق ، ووترلو تجيء بعد هيستنجز رغم ان الموقعتين حدثتا منذ زمان بعيد • وكذلك الحال في العلاقات المستخدمة في المنطق والعلم ، كعلاقات لأن وحينئذ ، ومن اجل هذا • وقضايا الحساب ، من مثل ضعف ٢ = ٤ ، ومربع ٣ = ٩ ، تبقى صادقة سواء ألاحظت أنا صدقها أم لم ألاحظ • واني لميال الى القول بأن العلاقات الذوقية كالعلاقات المنطقية ، لها وجود موضوعي مستقل ، فتمثال فينوس من عمل ميلو سيبقى اجمل من تمثال الملكة فكتوريا ، وتاج محل أجمل من نصب البرت التذكاري ، حتى ولو مر مذنب فقتل بغازه كل رجل وامرأة في العالم •

واذن فنحن مسوقون الى نتيجة بعيدة المدى : قد يبدو اننا نستطيع

بالبداءة الذوقية ان ندرك أنظمة من العلاقات شاملة ، وهي من التعقيد بحيث لا تستطيع قوة العقل الانساني المجرد على ما أوتيت من صبر وتحليل ، ان تفرغ من تفصيلها الى أجزائها ، فمقطوعة وردزوورث في قنطرة وستمنستر ، والجزء الاخير من اوبرا ترستان ، ومجموعة التفاح من رسم سيزان ، كل هذه تعطينا في خمس دقائق أكثــر ممــا يستطيع الفيلسوف ان يشرحه في محاضرة تستغرق ٦٠ دقيقة • وقد يكون شرح الفيلسوف على طوله مــن التخصص بحيث لا يستطيع تتبعه الا القليلون • واذا كــان ذلــك كذلك فالفكرة الشائعة من ان الجمال انمــا ينشئه منشئه ويستمتع بــه مجربه لا لشيء الا لأنه يعطي لذة ـــ فكرة قائمة على سيكولوجيا خاطئة تماما • ولو صحت هذه لصح قياسا عليها ان يقال ان برهان اينشتين على النسبية انمــا يوجد لأنه يعطي لــذة للمخترع والقارىء • فكمــا ان بحث الرياضي عن الحقيقة هو مثال سام من ذلك الحق الطبيعي لكل انسان وهو البحث عن الحقيقة ، كذلك بحث الفنان عن الجمال ليس شهوة أو خيالا لعبقرية ضالة ، وانما هو مثال خالص من موهبة هــي فــي متناول الجميع ، موهبة تمكن الصغير وبطيء الفهم وغير المتعلم مــن ادراك القيم الانسانية ، أحسن مما يمكنهم الجدل المنطقي • ونحن كلنا امام الوجود بطيئو الافهام صغار غير متعلمين •

الجمال والفن

عندما يطلب الى جماعة من الناس ان تحكم على جمال شيء ما ، قلما تفكر في الواقع في جماله مطلقا ، واحكامها التي تصدر عنها ليست ذوقية ولكنها شخصية ، ويبدو ان كثيرا من العوامل لا شأن لها تؤثر فيها ، واذا كنا هكذا متأثرين في حياتنا الشعورية بعوامل متنوعة فما أعظم ما يستهدف له حكمنا من تحيز اذا أثرت فينا هذه العوامل تأثيرا لا شعوريا !

على مثل هذه الأسس في الغالب بنى كثير من النقاد وعلماء النفس رأيهم في ان الجمال ذاتي محض ، وان التفضيل الفني ليس الا مجرد ثمرة لذوق شخص خاص يختلف حسب اختلاف الفرد والعصر ، فأزياء السنة الماضية تصبح شيئا قديما في العالم الحالي ، والكنائس القوطية التي بنيت في حماسة أيام راسكن وفكتوريا تعتبر قذى في عين بعض الناس في هذه الايام ، وآباؤنا الذين درجوا على ان يحسوا الراحة فوق الكراسي اليعقوبية وعلى ان يتناولوا غذاءهم فوق موائد الأرو قد يفزعون حين يدعوهم واحد من ناشئة الجيل الحاضر للجلوس على مقاعد من الصلب وتناول الطعام على لوحة مستديرة واسعة من الزجاج ، ان الشهوات الذوقية تجيء وتذهب ، وعند بعضهم ان كل شيء في الفن نسبي ، فليس هناك شيء حسن أو قبيح ، وانما التفكير هو الذي يحسن أو يقبح ،

ولكن هبنا طرحنا جانبا هذه الروابط غير الاصيلة في الموضوع ، من

مثل الازياء والاوهام واللوازم التي تجلب الغموض الى حاسة الجمال عندنا، هبنا جردنا انفسنا تماما من كل انفعال شخصي ومن كل مصلحة شخصية ، ونفضنا أيدينا من كل شاغل عملي ومن كل شؤون ذهنية تستلزمها ضرورات الحياة اليومية من بيولوجية وعملية ، فهل يبقى بعد ذلك أي اساس مكين لتفضيل شيء على آخر ؟ وهل هناك أي شيء يمكن ان يجده كل شخص جميلا في ذاته ولذاته ؟ وهل هناك أي شيء يمكن ان يجده كل شخص قبيحا ، لا فرق بين متمدن أو بدائي، بالغ او طفل (أثيني قديم) أو (لندني) من جيل ما بعد الحرب الكبرى ٠

أنا أعتقد ان هذا قد يكون ، واعتقادي قائم على أسس من التجربة والمشاهدة ٠ ولقد قمت منذ سنوات مضت بتجربة قصدت منها الى اختبار التفضيل الفني بين انواع مختلفة من الناس ، فجمعت مجموعة من خمسين بطاقة مصورة انتظمت نسخا من صور مشاهير الاعلام الكلاسيكيين ، وصورا متوسطة لرسامين من الصف الاول ، وهكذا من كل الاشكال والانواع المتفاوتة الى أبسط انواع بطاقات الميلاد التي استطعت العثور عليها في دكاكين الاحياء الفقيرة ٠ كان الاختبار منصبا على ترتيب البطاقات الخمسين حسب نظام التفضيل بينها ٠ وقد قصدت أولا الى ان احصل على معيار للموازنة ، ذلك بأن عرضت المجموعة على فنانين وخبراء من نقاد الفن ٠ فبدأوا كلهم تقريبا يحتجون بأن مثل هذا المعيار مستحيل : عضو الاكاديمية الملكية يعلن ان رجل المدرسة الحديثة في الفن سيقلب ترتيبه رأسا على عقب ، وكلاهما يؤكد ان محاولة الاتفاق مضى عليها ٠ ومع ذلك فقد ادهشني ان ترتيبهما كان متطابقا في معظم الاحوال ٠ اذ بلغ معامل الارتباط تقريبا ٠،٩ ، وكل ما هنالك ان عضو الاكاديمية مثلا ، يضع منظرا طبيعيا من تصوير (ليدر) قريبا من القمة ، على حين يضعه رجل المدرسة الحديثة في المرتبة العاشرة أو الخامسة عشرة ، ولكن على أية حال أعلى بمراحل من

الصور التجارية الفظيعة التـي توجد فـي دكاكين الورق ، وبعضهم يضع (رفائيل) اولا ، والصور البدائية رابعا أو خامسا ، على حين يضع آخرون البدائية أولا ، ولكن احدا منهم لم يبعد برفائيل كثيرا الى المراتب الدنيا • وقد بدا واضحا للعيان ان فروق هؤلاء في ذوقهم وحكمهم أقل كثيرا مما قد يتصوره المرء مـن خلافاتهم ومناقشاتهم الحـادة • والنتيجة التي يجد الباحث نفسه مسوقا اليها هـي باختصار : ان هنـاك شيئـا أساسيا يسير الاختيار العام عند هؤلاء الاشخاص ، بالرغم ان نظرياتهم ووجهات تفكيرهم الخاصة قد تحدث اختلافات صغيرة قليلة •

هذا في الواقع يتعارض وآراء معظم النقاد الحديثين ، ولكـن يمكن اقتباس عدد من الآراء المشهورة التي تؤيد هذا الاتجاه • فلأقتبس هنا فقرة واحدة من (برك Burke) وهي تحتوي نتيجة رائعة موضوعة في قالب رائع ، وصل اليها من بحثه في (الفاخر والجميل) • ان برك بالرغم مـن اعترافه بأن احكام الخبراء على الجمال تختلف كمـا تختلف احكامهم على مسائل الفلسفة أو الفضيلة • يصر على القول (بأننا على العموم نلاحظ ان الخلاف الموجود بين الناس في مسائل الذوق أقل من خلافهم على المسائل التي تعتمد على المنطق المجرد ، وان الناس ليتفقون علـى جودة وصف في كتابة فرجيل أكثر مما يتفقون علـى صحة نظرية مـن نظريات أرسطو أو بطلانها) •

وعندما تحولت من الكبار الخبراء الى الصغار غير المدربين وعرضت عليهم الصور ، وجدت اثر العوامل غـير الاساسية (الخارجة عـن طبيعة الفن) أوضح وأقوى ، اذ بـدأ موضوع الصورة يلعب دورا غـاية فـي الاهمية ، فالاولاد فـي سـن العـاشرة مثـلا يضعون صـورة الحرس الراكب ، أو منظـر الواقعة البحرية ، أو صـورة القـاطرة البخـارية ، قرب أعلى القائمة في الترتيب ، على حين يضع البنات في هذه السن صورة

القطة الصغيرة أو براعم الورد في أعلى القائمة • غـير ان الموضوعات التي اخترتها كانت متنوعة الى درجة ان تأثيرها الخاص في مجموعة من خمسين صورة وازن بعضه بعضا • لهذا عمدت الى حساب التلازم بين الترتيب الذي عمله كل طفل أجريت عليه التجربة ، وبين متوسط الترتيب الذي استخلصته من النقاد الفنيين واعتبرته مقياسا ، وتوصلت بهذا الى استخراج معـامل الارتباط ، أي درجة الذوق ، وعلامته عند ذاك الطفل • وقد لاحظت ان ذلك العامل يزداد في الغالب زيادة مضطردة مع زيادة سن الطفل • ولكن الكبار ـ الا من توفر لديهم المران الفني الطويل ، أوكانت لديهم موهبة خاصة من الحساسية الفنية أو التعلق بالفن ـ جاؤا أقل من ذلـك المستوى الحقيقي بمراحل ، هذا اذا صح ان يسمى المقياس الفني حقيقيا •

من هذه التجارب التي اجريتها على الاطفال تبرز نتيجتان ذاتا مغزى خاص : اولاهما ان معاملات الارتباط كانت كلها في الغالب موجبة مما يبدو معه ان هناك عاملا واحدا عاما تقـوم عليه الاحكام الفنيـة عنـد الجميع وتتأثر به • والثانية ان بعض صغار الاطفال ـ اولئك الذين دون الثامنة ـ قربوا جدا في ترتيبهم من ترتيب الفنان والناقد الفني • فلقد يبدو اذن ان بصيرتنا الفنية تضمحل كلما كبرنا في السن ، فتصبح أقصر نظرا ، وتفقد أعيننا براءتها الفطرية • اننا اذ ننمو نصبح اكثر تصنعا ، وأحرص على العمل المنتج ، فننفذ بأبصارنا الى ما وراء الظواهر المنظورة ، ونبحث عما انطوى تحتها من معان عملية •

هل أطلت النظر مرة الى منظر بعيد ، وقد حنيت رأسك بين ركبتيك في وضع معكوس ؟ انك ان فعلت عجبت من الالوان الفنية التي يعمى عنها النظر في وضعه المستقيم • انك ، وانت في وضعك المستقيم تتبين في الحال أين الدخان وأين التلال ، وتظن انك تعرف ان الدخان في الحقيقة أسود ، ولهذا لا ترى الصبغ الارجواني الرقيق ، وتعرف أو تظن انك تعرف ان تلك

القمم الصخرية في الحقيقة رمادية ، ولهذا تحرم رؤية ذلك اللون الازرق اللطيف الذي يبسطه الندى والضباب فوق تلك القمم •

انظر الى البحر من خلال نافذة مخدعك في السفينة تدهش لمنظر ذلك اللون الاخضر الازرق العميق ، ولو انك نظرت اليه من فوق سطح السفينة لم يبد لك ـــ كما قال أحد المسافرين ـــ الا ماء قذرا ، وهكذا تقود المعرفة والتجربة الى نوع من الفهم العادي ، فنرى مـــا نعرف نحن انه هناك ، لا ما هو هناك ليرى ، ونساق الى ان نفكر في الحقول الارضية المحدودة • فمثلنا في هذا مثل الولد الكافري الذي مـــن قبائل الزولو ، وهـــو الذي التقط قطع الحصى ليحصب بها رفيقه ، ولكنه اغفل ان يلاحظ انها فصوص من الماس •

هذا المنظر غير الرومانسي ينمو معنا كلما تقدمت بنـــا السن ، وكـــل تلميذ تقريبا ينتهي من المدرسة أضعف في احساسه الفني منه حين يدخلها ، والقليل الذي يبقى له تذهب به السنوات الاولى من حياة العمل الثقيل • فكل واحـــد منـــا يولد فنانا صغيرا ، ولكن حاجاتنا العملية ، مـــن مطالبنا ومشاغلنا وذكريات حياتنا اليومية ، تغطي بسحبها بصيرتنا الاولى المنيرة •

اذا كان الشعور بالجمال عاما ، واذا كان هذا الشعور رغم العوامل الاخرى ، يحدث نفس التأثير فينا جميعا ، فانه يستنتج من ذلك ان الجمال نفسه ليس متوقفا كل التوقف على المصلحة أو الهوى الشخصي ، بل يبدو في الواقع ، ان الفيلسوف الحديث عائد الى الرأي القديم الذي كان يقول ان الجمال موضوعي ، أو على الاقل ، ان أحكـــام الجمال يمكن ان تدعى وهي محقة ، انها عامة الصدق • وأظن عالم النفس لا بد متفقا مع هذا الرأي في النهاية • فنحن نرى الجمال لانه هناك ليرى ، وليس الجمال شيئا نخترعه أو نتصوره بأنفسنا ، انـــه شيء نحسه ونجده ، انـــه بالاختصار يحل في الموضوع الجميل •

على ان هذا لم يكن الرأي المقبول بين النقاد والفلاسفة السابقين الذين كتبوا في الجمال ، فالى عهد قريب كان الرأي الحديث يميــل الــى الجهة المعارضة ، الى اعتبار ان الجمال ليس صفة في الاشياء الخارجية ، أاشجارا كانت أم ازهارا ، وقصائد أم صورا ، وانما هو أثر وقتي لحالة من حالات العقل • فكلمة (جميل Beautiful) مثل كلمة (جدير بالحب Lovable) تستعمل التصور صفة أو كيفية نطلقها نحن في بساطة على الموضوع ، وهي في الواقع انما نقرر انه الموضوع في انفسنا • فالسكين ليست مؤلمة حتى توجع ، وكذلك غروب الشمس لا يكون جميلا حتى يشعر شخص ما نشوة ذوقية عند النظر اليه • ويضيف اصحاب هذا الرأي الى ما تقدم ان هذا هو السبب في اختلاف الأذواق ، فحيث أرى جمالا قد ترى انت سوء تكوين ، والسبب في ذلك انني أحس انجذابا نحو الشيء على حين تحس انت نفورا وابتعادا •

المعيـــار الفني

من بديع ما وصف به الفن انه : أرقى مظهر للطبيعة الانسانية ، ووصف الفنان نفسه بأنه عبقرية ملهمة مرسلة من السماء ، وان درجته مـــن أفضل درجات البشر * • ومن هنا كان السؤال الذي يواجـــه عـــالم النفس في مستهل بحث كهذا هو : هل الميل الفني ملكة فردية وموهبة خاصة ؟ أم هو مجرد ثمرة تفرعت من الخطوات العقلية العادية ونمت نمـــوا طبيعيا ، وان شيئا منه موجود عند كل رجل وكل امرأة ، وانـــه ممـــا يدخل فـــي حياتنا ومعاملاتنا اليومية ؟ واجه العلماء هـــذه المعضلة بأن درسوا طـــرق الفنان وبواعثه ، متبعين في هذه الدراسة مناهج البحث العلمـــي ، فدرسوا حياة غوتـــه وزولا وبيرون وكيتس وفاغنر وبيتهوفن وترنر وليوناردو وكثيرين

* يعتبر الدين من المصادر الرئيسية للاحساس الفني والابتكار ، كما ان الفن وسـيلة أساسية من وسائل التعبير عن التفكير الديني • وفـــي جميع ارجاء العالم ـــ من معابد الصين الى تماثيل المكسيك ـــ ابتـــدع الفنانون أكثر الانتاج الفني قوة وجمالا تبجيلا للالهة ، ومن المحقق اننا لن نستطيع ان نفهم اي دين ، في قوته أو ضعفه ، بغير ان تقدر الفن الذي اوحى به لعباده ، فان التراتيل والعظات القويـــة البسيطة التـــي تمتـــاز بهـــا الكنيســـة السريانية ، والمذابح ذات الزخارف الضخمة التي تمتاز بهـــا كنـــائس الرومان الكاثوليك والصور المصنوعة من الفسيفساء بكنائس الروم الارثوذكس ـــ هذا على الاقل بالنسبة للديانة المسيحية ـــ كل هذه الاتجاهات تعبر عن ثلاث وسائل مشروعة للدنو من المسيحية ـــ المترجم •

غيرهم ، ووازنوا بينهم ، ولـم يهملوا شيئا مما يمكن ان يلقي ضوءا على النمو العقلي عند هؤلاء الفنانين ، وعلى النواحي الخاصة التي نبغوا فيها • ولم يكتف عالم النفس بهذا بل استدرج الشعراء والمصورين الـى معمله ليقيس درجة تأثرهم ويخبر قواهم المقبلة • كل هذه النواحي مـن البحث أدت الى نتيجة واحدة : ذلك ان الفنان ــ من حيث ذكاؤه العام ومن حيث موهبته الخاصة ــ رجل مزود بهبات فطرية نادرة • غير ان الفرق في الدرجة لا في النوع ، فالمقدرة على خلق العمل الفني ــ كالمقدرة على تذوقه ــ لا تتوقف على ملكة اضافية منعزلة عـن مجرى حياتنـا اليومية ، وهـي في درجاتها العليا ليست الا احدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية •

وهذا يسهل فهم هذه المعضلة اذا حاولنا ان نتعقب الفن الى مصادره الاولى ونرى كيف نبع • وهنا يستطيع عالم النفس ان يستمد شيئا كثيرا من الضوء من سجلات المظاهر الفنية الاولى عنـد الانسان البدائي وعند الطفل •

ويرى بعض الباحثين ان الفن ــ أيا كانت مظاهره ــ ليس في أصله الا نوعا من اللعب ، فالرجل الذي يصنع لحنا ، والرجل الـذي يستمع الى لحن ، كلاهما يشتغل بنوع من اللعب ، كلاهما يلعب بانفعالاته • فالانفعالات قد وهبت لنا ــ لا من أجل نفسها ــ ولكن لما تثيرنا الى الوصول اليه من الآثار العملية • ان كل وجدان وكل فكرة تميل الى ان تحقق نفسها في حدث ما ، فأحيانا يكون ذلك الحدث نافعا فنسميه عملا ، واحيانا يبدو وجود حدث زائد عن الحاجة فنسميه لعبا • على هذه القاعدة يمكننا ان نعتبر جولة من جولات كرة القدم انتاجا فنيا ، أما الرقص فمنزلة بين المنزلتين ، فالراقص في احدى صالات بعد الحرب لا يدري أهو مشترك في شكل قديم من الفن أم في شكل حديث من اللعب ؟

ووجه الشبه بين الاثنتين هو ان كلا الفن واللعب يبدو عديم النفع

رغم كونه مثيرا حافلا بالهوى والانفعال • وهذا هو السر في ان الجدات في العصر الفيكتوري (في انكلترا) كن ينظرن بغير عين الرضا الى الفنانين والى مظاهر التسلية ، فاللعب ليس عملا ، ومن هنـا اعتبر مضيعة للوقت ، والفن ليس شغلا ، ومن هنا نظر اليه بعين الاحتقار • ولهذا تجد على مـا أظن عصرا كذلك العصر ، جمع بين النجاح والاخلاقية والدقة العلمية ، وبين الدمامة البالغة •

ان حجج اهل ذلك العصر وجيهة ومعقولة الى حد ما ، فأنت في اللعب وفي الفن تهيج غرائزك وانفعالاتك ، ولكن لغير مـا هـدف عملي ظاهر • ويتضح التماثل اكثر اذا درسنا طائفة من كليهما في تصرف الطفل البالغ •

لنفرض ان كلبا الزاسيا ضخما انطلق يعوي خلف بنتك الصغيرة ، ان حجم ذلك الحيوان وعواءه الصاخب سيثيران عند الطفلة غريزة طبيعية هي الخوف ، وذلك الخوف يتجلى (فـي طريقة آلية) فـي الهـرب وصراخ الاستغاثة • وظاهر ان الحركة والصراخ كليهما نافعان لانهما يعينـان على النجاة من الخطر • ولكن افرض انك تظاهرت باخافـة ابنتـك بأن دفعت دميتها نحو وجهها ، فمن المحتمل جدا ان تسر الطفلة بهذه الجرعة القليلة من الخوف ، وكلما قربت الدمية منها صاحت في انزعاج لذيذ : مـرة ثـانية يا أبي !

ومن الواضح في هذه الحالة ان كليكما يلعب بالخوف ، الا ان هذه الدراما التي اخترعناها ليست مجرد تمضية للوقت ، فالطفلة فـي تجاربها اللاعبة انما تمرن نفسها للحالات الهامة التي ستتعرض لها بعد في الحياة ، وتتعلم كيف تضبط انفعالاتها وكيف تستعملها وهذا هو السر في ان الطبيعة تشجعنا على ان نلعب •

غير انه ليس من الضروري لهذه الطفلة (ماري) ان تعتمد في اثارة انفعالاتها على أبيها أو على حيوان يخيفها ، فقـد يؤثر فيهـا صحو النهار

واشراق الشمس فتشعر بقوة الحياة وبهجتها ، وتبدأ تقفز أو تترنم ، وبهذه الطريقة تتخلص من نشاطها الزائد • وهي اذ تقوم بهذا انما تشد من عضلاتها النحيفة وتزيد في سرورها واغتباطها • وهذا المد والجزر في أحاسيسها سينسج من حركاتها واصواتها نموذجا خاصا من حركة تعبيرية ومن رقص وغناء • وهكذا — في هذه الحركات والاصوات اللاعبة ، التي تنبعث حرة مختارة — نرى الاشكال الاولى للفن •

هذا هو شأننا على الخصوص حيث لا تجد وجداناتنا المتوقدة عملا جوهريا تشتغل به ، فتراها تصرف نشاطها في تمارين تعبيرية من هذا النوع • وهذه هي الحالة الطبيعية عند الطفل الصغير حيث يقوم الآخرون على حاجاته ، وحيث يجد نفسه حرا يلعب هنا وهناك • فلنعد مرة اخرى الى مثالنا الاول ، ان (ماري) التي تحررت لحظة من الرقابة الابوية ، ثم رجعت تعدو الى المنزل وهي تلهث من الخوف صائحة : أبت ! أبت ! اقفل الباب ، ان كلبا ، يتبعني • لم تكن فيما تقول لاعبة ، ولا مشغولة بمجهود فني ، وانما هي تقرر حقيقة وتبعث بصيحة استغاثة • غير ان مخاوفها تعود اليها في المساء حيث يحتويها مخدعها ، وحيث تعرف انها بمنأى عن الخطر فتبدأ مخاطراتها من جديد ، وهذا العرض في الحقيقة يخدم غرضين : الاول ان يزيل ما بقي عندها من خوف وفزع ، والثاني ان يعيد اليها ذلك التأثر ، ولكن في جو آمن مريح فتسر وتتمتع به • هذا العرض اذن يقرب كثيرا في طبيعته من العمل الفني ، وهو كما يقول وردزورث : التعبير عن الانفعال مستعادا في هدوء * • ولا يمضي طويل وقت حتى تظهر ميول نفسية اخرى عند هذه الطفلة وتنضم الى الميل الاول • فمن ذلك غريزة اظهار

---

* هذه جملة مشهورة للشاعر الانكليزي وردزورث ترد في معرض كلامه عن الشعر وطبيعته في المقدمة التي قدم بها لمقطوعاته الغنائية Lyrical Ballads .

النفس (حب الظهور ، محاولة الفرد توجيه اهتمام الاخرين الـى احواله) والغريزة الاجتماعية (الرغبة في التعاطف ــ نزوع الفرد الى ايصال تجاربه الى الاخرين) وغريزة البناء او التركيب (التلذذ بتركيب شـيء جديد أو انشائه) • فتـرى الطفلة فـي طريقة لاشعورية غالبـا ، تصقـل حواشي مخاطراتها العقلية فتقول : لقد كان الكلب يقرب في عظمه من الفيل، وكانت عيناه تبرقان كأنهما مصباحان • وربما كانت الحادثة احيانا من اختراعها • الا انه سواء أكانت القصة حقيقة أم مجرد خيال فان الباعث عليها واحد ، ذلك هو تصريف المقدار المتجمع من الخوف • فالفاظ الطفلة في هذه الحالة ليست طلبا للنجدة ولكنها وسيلة لتخفيف الضغط الانفعالي ، فـي نوع من التعبير الخارجي • ووظيفتها ــ كما يخبرنا أرسطو ــ ان تطهر العقـل من وجداناته المتعبة • ولو ان الطفلة لم تهز مخاوفها في طريقة كهذه لكان من المحتمل ان يضايقها في تلك الليلة كابوس ثقيل •

ان الفنان في صالته والشاعر امام مكتبه لا يختلفان عن الطفل في منزل الطفولة ، فكلاهما في انشائه لفنه ينفس عن وجدان زائد لم يجد اشباعا كافيا في عالم الواقع • وكذلك القارىء والمتفرج والسامع كلهم يروح عن نفسه بمعونة مـا عند الفنان من مهارة فائقة • فليس الفنان اذن ولا الشاعر بمعني مباشرة بحقائق الحياة كما هي ، ولا هو معادل رسم خطة لشيء نافع في الغد ، ولا هو يحاول كذلك تسجيل حوادث اليوم • وهذا هو السر في اننا أحيانا نسمي العمل الفني عمل الخيـال • وقد يكون أحسن ان نعرض انفسنا لتناقض ظاهري فنسميه عمل اللعب •

ومعنى هذا ان اللعب الفني شأنه شأن كل انواع اللعب ، قـد يؤدي خدمة غير مباشرة ، فهو ــ من طريق خفي ــ ينبعث من الماضي ، ويعبر عن رغبة مبهمة نحو المستقبل • وهو نوع مـن التعويض لشـيء هفت اليـه نفوسنا ، ولكنها عجزت ان تحصله • وهو يهيىء منفذا لانفعالاتنا الهائجة

ويعيننا في الوقت نفسه ان نضبط هذه الانفعالات وننظمها ، وذلــك بأن نستخدمها في أحوال خيالية • نحن الآن نعتقد ــ كما يعرف كل مدرس ــ انه حتى ألعاب الاطفال تقوم بوظيفة أساسية في تربيتهم الوجدانية • والفن كذلك ــ سواء منه التعبير الفني عن النفس أو التذوق الفني ــ ينبغي ان يعطى مكانا ظاهرا في منهاج المدرسة كوسيلة لتنمية الميول الصحية وتهذيب الوجدانات الخشنة • أنا لا أقول ان هذا هو الباعث الوحيد على ادخال الفن ، ولكنني أقرر بكل ما أملك من قوة انه من المهم سيكولوجيا ان نربي كل نواحي الانسانية فينا ، ان نربي حاسة الجمال مع حاسة الخير والصدق• وأنا أرى ان التربية الفنية التي من شأنها ان تساعد في تكوين الخلق ، متمم لا بد منه للتعليم المدرسي ، الذي يغلب عليه في حالته الحاضرة ان يكون لغويا أو علميا أو عمليا •

فمن دراستنا للطفل اذن نصل الى النتيجة المثمرة التالية وهي : ان الفن في جميع مظاهره يرجع الى بعض انفعالات قوية لم تجد لها منفذا طبيعيا في حياتنا اليومية وضروراتها الحيوية أو العلمية • وهذا يوصلنا الى نقطة ثانية اسفرت عنها الدراسات الحديثة للانسان الراشد المتمدن ، تلك هي ان الفن في كثير من نواحيه ليس الا تمنيا أو تحقيقا خياليا لرغبة لم تحقق في الواقع، فمن أمثلة ذلك انك تجد سكان لندن يعلقون على جدرانهم صورا من رسم (كونستابل) او (ليدر) ذلك لانهم اذ ينظرون الى هذه الصور يستطيعون ان يقضوا بعض لحظات في جوار الريف • وما جنة الحب التي رسمها روبان ولا جزيرة سيذرا من رسم واطو ولا الحجاج يؤمون ايطاليا حيث السماء صافية الاديم ، من رسم ترنر الا دعوات يوجهونها الينــا لنشد رحالنا الى الارض التي تهفــو اليهــا قلوبنا • اذن نستطيع ان نصرح ان الصورة او القصيدة او الرواية ليست في الغالب الا تحقيقا لحلم من أحلام اليقظة نريه الاخرين ، أو نصوره على صفحة من الورق أو القماش •

ان الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي على الاحلام وأحلام اليقظة قد ألقت جانبا كبيرا من الضوء على عمل العقل عند الفنان ، فالعمل الانشائي الذي يقوم به الفنان يكون في الغالب ــ مثل حلم اليقظة ــ نتيجة عملية لاشعورية ، وما يبدو للعيان مجرد لمحة من الالهام او ميــلا انشائيا فريدا، اذا انت فحصته بدا لك في طبيعته المعقدة منبعثا من ميول عدة، تعمل عملها في الاعماق تحت سطح الشعور ، هــذه الميــول تستمر فــي عملها اللاشعوري ما بقيت مكبوتة ، وتبقى آثارها بسيطة وغير مفهومة ما بقيت مصادرها خفية • ولكن متى تحقق الناس ان العقل ــ حتى فــي مشكلاته العادية ــ يقوم بسلاسل من النشاط اللاشعوري، تكشفت لهم ألغاز الانتاج الفني كل التكشف •

هذا في الواقع هو الشرح الذي يعطيك اياه الفنان• يقول ستيفنسون: ان الكاتب المنشيء العظيم يعرض علينا احلام اليقظة ــ التي تجيش فــي أذهان الناس ــ في صورة محققة خالدة، وقد تكون حكاياته ممزوجة بشيء من حقائق الحياة ، ولكن غرضها الحقيقي ان تشبع في القاريء عــددا لا يحصى من الرغبات والاهواء ، وان تخضع للقوانين التي تسير عليها أحلام اليقظة • ويروي ستيفنسون * في موضع آخر كيف بدأ هو يكتب تلك القطعة الفنية البديعة قصة الدكتور جيكل والمسترهايد . فهو يقول فــي وصفه لتلك العملية في الفصل الذي عقده عن الاحلام :

ان العمل الحقيقي يقوم به مساعد غير منظور أبقيه أنا داخل حجرة عليا

---

* روبرت ستيفنسون كاتب انكليزي (١٨٥٠ ــ ١٨٩٤) اشتهر بكتابه الدكتور جيكل والمستر هايد والذي حكى فيه عــن انفصام الشخصية قبــل فرويد بسنوات طوال . للمؤلف كذلك (جزيرة الكنز) وقد ترجمتها بنصها الكامل الى اللغة العربية وصدرت عن دار الافاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨١ . المترجــم .

مغلقة •• يقوم به اولئك الناس الصغار ــ في الدماغ ــ الذين ينجزون لي نصف عملي وانا مستغرق في نومي ، وربما انجزوا النصف الباقي وأنا مستيقظ تمام اليقظة ، حيث أظن اني أنا القائم بالعمل • وكثيرا ما يعن لي ان اعتبر نفسي ــ ما أسميه انا ذاتي الواعية ، ذلك الرجل ذا القبعة والحذاءين ، ذلك الرجل ذا الضمير وصاحب الحساب المتناقض في البنك ــ كثيرا ما يعن لي ان اعتبره غير فنان بالمرة ، بل مخلوقا شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه •

هذه الصورة المستملحة يؤيدها اشارات من كتاب آخرين ، فهذا فولتير وقد جلس مرة في احدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته يصيح متعجبا : أحقا أنا الذي كتبت ذلك • وهذه جورج اليوت التي لم تكن تميل بها فلسفتها الى الاعتقاد في قوى نفسية غير طبيعية ، تصرح انه قد خيل اليها اثناء كتابتها Adam Bede : ان عقلا آخر قد استحوذ على قلمها وسيره • ويقال ان كوليردج نظم أشهر قصيدة له وهو تحت تأثير الافيون ، وان بليك أعد هياكل أعظم صوره وهو في حالة نوم نشيط • ويزعم غوته انه كتب أحسن رواية له وهو في غيبوبة حالة يشبهها هو بحالة النائم الماشي •

واذا أردنا دليلا من الكتاب الاحياء ، فهذا الاستاذ هوسمان يخبرنا عن الطريقة التي كتب بها قصائده اذ يقول : انا أظن ان انتاج الشعر ليس عملية فاعلة Active قدر ما هي قابلة Passive وغير اعتيادية • وهو يشرح كيف هبط عليه الالهام في كتابه The Shropshire Lad فيقول : ربما شربت كأسا من الجعة مع غذائي ، والجعة مسكنة للعقل ، وحالتي الذهنية على أقلها في أوقات بعد الظهيرة ، ثم خرجت للمشي ، وسرت وأنا لا أفكر في شيء خاص ، فلا يلبث ان ينبثق في ذهني ، انبثاقا فجائيا مقرونا بشيء

من الانفعال لا أعرف مأتاه ، شيء مـن الشعر قـد يكـون بيتا أو بيتين أو قطعـة Stanza بتمامها ، ويصحب ذلك ــ لا يسبقه ــ فكرة غامضة عن القصيدة كلها ، ثم تعقب ذلك في العادة فترة ركود ، وربما تفجر الينبوع مرة ثانية ، وأقول تفجر لان ما يصل الى المخ يبدو كأنه صادر من الاعماق • وهو يضيف الى ذلك ــ في دعابة ــ انه يظن ان مصدر ذلك الينبوع هو (جوف المعدة) • كل هذا يتفق ودراسات المحلل النفسي •

ولهذا لن تتردد في ان نقبل النتيجة الرئيسية التي وصل اليها التحليل النفسي وهو ان خير القصائد وخير الحكايات وخير الصور انما هو انتاج العقل الباطن • مثل هذا ربما حدا بالقارىء ان يظن ان هذه النتيجة ليست الا تعبيرا آخر عن الاعتقاد الذي شاع منذ القدم من ان العبقرية والجنون رضيعا لبان • وفي الحق ان هنالك تشابها كبيرا بـين أوهام الرجل المجنون وبين الخيالات الهائجة التي يتكشف عنها عقل الفنان • غير انه ليس معنى ذلك ان كل عبقرية جنون ، وانا أبعد ما أكون عن القول بأن الفنان ليس الا حالم يقظة مضطرب الاعصاب •

ان الانفعالات في الانواع الرفيعة من الفن تبدو غـير شخصية وغير متحيزة • وليس كذلك شأن الاهواء الذاتية التي تبعث فينا احلام اليقظة السقيمة ، والتي تقوم عليها الافلام الرائجة بين سواد الشعب ، والروايات الرخيصة • وليس هنالك من شك في اننا نستطيع ان نميز في الاعمال الفنية العظيمة انصرافا ظاهرا عن الحاجات العاجلة التي نجدها في احلام اليقظة نصف الشعورية • غير انه انصراف علت درجته وسما مجاله ، ففي ركن من أركان الوجود تنجذب عين الفنان الـى ضوء أو لـون راقص ، فترى في الاشياء وفي تواريخها في ذاتها ولذاتها معنى أعمق ، وهذا الاستغراق في تأمل المعاني العميقة للاشياء هو مـا يجعل الفنان احيانا يبدو ذاهلا شارد اللب مطلق العنان غارقا في الاحلام والرؤى الاثيرية •

ومع ذلك فهذا المعنى العميق الذي يتطلب لا رغبات ذاتية ، ولا جريا وراء عمل ما ، هو الذي يجد في تحصيله الفن الرفيع ، فالشجرة فـي نظر الفنان ليست مجرد قطعة من الخشب تقطع وتباع بثمن مـا ، وليس غروب الشمس مجرد ظاهرة كونية يتنبأ منها عن حال الجو في غد، وانما لكل منهما ـــ وهو شيء منظور ـــ قيمة فـي نفسه يحاول الفنـان ان يظهرها ويؤكد معناها • وهو في سبيل ذلك ربما فعل بها ما فعلت (ماري) في قصتها مع الكلب ، فغير فيها أو عدل منها أو ألبسها صورة مـن عـالم المثال ، فتراه يبسط خطوط صورته ويظهر ظلالها ونواحي الاتساق فيها • واذا سألته : لم فعل هذا ؟ فقد يهز كتفيه قائلا : انه لا يعرف السبب • وربمـا حدثك في لغة متصوفة عن التجربة الذوقية التي حصلها اذ أطل من نافذة مرسمه على أوراق الاشجار ، وكيف حاول ان يرسم هذه التجربة على صفحة القماش• فصاحبنا ـــ على عكس الرجل العملي ـــ انما يعنى بالتأمل اكثر من عنايته بالمنفعة ، وتهمه أنظمة خاصة من القيم •

ويمكن تتبع مثل هـذا الباعث فـي الشعور ، ولا سيما في المآسي العظيمة ، فليس في المأساة تحقيق لرغبات خشنة متخيلة ، وليس فيها خواتم سعيدة ، ولا عدالة مثالية رخيصة لتخفي الآلام الواقعية في الحياة • ولكن فـي المأساة معنى عميقـا تشير اليه عـن بعـد ، فموت (عطيل) وموت (كورديليا) يخبراننا ـــ في طريقة ما ـــ ان الالم والخذلان ليسا نهائيين كما نظن ، وانهما ينتميان الى جزء فقط من كل أوسع لا يحيط به علمنا • فلو اننا استطعنا ان ننظر الى تلك الحقائق المحزنة فـي ضوئها الحقيقي وفي ميدانها الواسع ـــ وهذا هو ما يساعدنا الشاعر على انجازه ـــ لوجدنا لها شأنا آخر ، انها بالضرورة لا تخفى ، ولكنها تظهر في اشكال مغايرة مصفاة• فالهدف الذي ترمي اليه المأساة اذن ليس ان تعوضنا عـن مصاعب الحياة (كما تفعل احلام اليقظة أو الروايات الرخيصة) ولكن ان تكشف لنا عن

شيء من سر الحياة الخفي ، وتساعدنا على الرضا به . وهذا هو السر في ان النهاية المحزنة لا تغمرنا كما نتوقع في حالة من الضيق العميق ، بـل على العكس — (وهذا تناقض ظاهر) تثير فينا نوعا من الغبطة الانسانية العامة ، نوعا من الطرب الذي لا بد ان يكون الشاعر نفسه قد خبره في لحظة قوية من لحظات وجوده .

وليس من شأن عالم النفس ان يبحث هل هذا مجرد خداع أو حيلة يحتال بها على مشاعرنا كاتب قدير ؟ فذلك أمر مرده الـى الفيلسوف ، أو مرده الى المزاج والايمان الشخصي لا الى العلم . ولكن بحوث عالم النفس التي تقصر نفسها على الواقع لا تترك مجالا للشك في ان الفنان الحقيقي — الفنان ذا الروح الحساسة والخيال الشعري — تمر به هزة روحية ، لا صلة لها بما تقتضيه مطالب المعيشة المادية الصاخبة . وقد يعتبر الفنان هذه الهزة شيئا جديرا في ذاته ان يحصل ، او قد يعتبرها رسولا شعاعا من النور من عالم القيم النهائية ، ومن مصدر ذي شأن كبير فـي أعمـاق الحيـاة والوجود . ولكن مهما يحاول الفنان شرح تلك الهزة فانها هي التي يريد ان يعبر عنها في صورته أو قصيدته .

فالفن اذن في أساسه نوع من التعبير ، وكل تعبير في مخلوق اجتماعي كالانسان ، هو في الوقت ذاته من التبليغ : فما هو ذلك الذي يوصله أو يبلغه الفن ؟ لمحنا الجواب من قبل : انه التجربة ، فالفنان ينقل تجربته الينا ، ونحن بما نعيد خلق تلك التجربة كرة اخرى بمساعدة الفنان نحياها مرة ثانية لأنفسنا .. فعلى عالم النفس اذن ان يتجه بعد مـا تقدم الـى تجربة السامع أو المتفرج : ماذا يشعر به عندما يتأمل العمل الفني ؟ وهنـا علينا ان نطالع سيكولوجية الاستمتاع الفني .

الاستمتاع الفني

يبدو ان اكبر التجارب الناجحة التي اجريت علـى التذوق الفني قد اتبعت في اجرائها طريقة يسميها السيكولوجيون (طريقة الموازنة الثنائية): ذلك ان توضع أمامك صورتان أو زهريتان أو قصيدتان يطلب منك ان تقول أيهما تحب أكثر ، وتذكر الاسباب التي حملتك على هذا الاختيار •

هذه التجربة تبدو سهلة ، ولكنها أدت الى نتائج حافلة ومن المستحيل في عجالة كهذه ان نلخص تلك البحوث القيمة ، الا انها جميعا تدل على ان موقفنا العقلي نحو الشيء الذي نعتبره جميلا موقف فـي نهاية التعقيد ، ويختلف باختلاف الاشخاص • أما أول بحث مهم من هذا الطراز في انكلترا فقد كان ذلك الذي قام به (الدكتور بلو Dr. Bullough) في معمل علم النفس بكمبردج ، اذ بدأ اولا بتجارب على الالوان البسيطة فوجد ان هناك أربع طرائق من الحكم الذوقي ، وان الاشخاص يمكن تقسيمهم حسب هذه الانواع الاربعة الرئيسية • ومن المعلوم ان اللون الواحد لا يكون بمفرده عملا فنيا ، فهو ليس الا عنصرا في كل أكبر • غير ان تجارب متشابهة أجريت على مواد من طبائع مختلفة وعلى درجات مـن التعقيد اكثـر كالاصوات والمقاطع الموسيقية والقصائد والالحان والصور • وقد كشفت النتائج على العموم عن انواع وميول متشابهة لما ذكرنا :

أ ـ فأعم الانواع يسمى النوع الربطي associative type ذلك ان

التفصيل الذي يقوم بــه الشخص ينبني ، لا علــى اللون أو الموسيقى أو الصورة نفسها ، ولكن على ما تثيره فيه ــ مــن طريق تداعي المعاني ــ من ذكريات ومسرات غامضة تعيدها الى عقله ، والشخصية المتعددة . وقليلون منهم يميلون الى قبول فكرة ، فهذا الشخص يكره اللون الاحمر لأنه ــ كما يقول ــ (يذكره بالدم) . وثان يفضل لونا أخضر مصفرا باهتا (لانه يذكره بأوراق الاشجار في الخريف) ، وثالث يقرر انه يحب فاصلا موسيقيا خاصا (لانه يشبه صوت العندليب في الربيع) .

مثل هذه البواعث تبدو أغلب (على أيــة حــال في شكل شعوري واضح) بين النساء منها بين الرجال ، وتظهر بمنتهى البساطة في الملاحظات التي يبديها الاطفال ، فقد حدثتني مرة بنت صغيرة قائلة : (اني أحب صورة « آدم وحواء » اكثر لاني اعرف الحكاية) ، وقال أخوها الاصغر · (اني أحب صورة « فتور الى » لانها عندنا في حجرة الاطفال) على حين فضلت أمهما صورة (جبل القديس ميخائيل St. Michael's Mount) قائلة : (ذلك لاننا ذهبنا هناك فــي شهر العسل) . وهكذا تثــير الموسيقى عنــد بعض الاشخاص ذكرى منظر أو قصة عاطفية ، فالمارش الجنائزي ــ الذي وضعه شوبان ــ يجعلك ترى الموكب فتسمع أولا رنين الاجراس ، ثم تسمع وقع أقدام الجنود يتضاءل شيئا فشيئا على بعد المسافة .

وبالنسبة الى الاثاث وموضوعات الفن الصناعي فان أهــم الافكار الطبيعية التي ترتبط بها تدور حول الغرض من الشيء أو فائدته ، فهنا يبني الكثيرون تفضيلهم ــ لا على الهيئة المنظورة ــ بل على توقع قيامها بوظيفتها خير قيام . فمن ذلك : الشخص الذي يقول في تفضيل أحد الكراسي ــ (ان الكرسي الاول أحسن لأن الجلوس عليه يكون مريحا) . حتى الالوان لها منافعها ، فمن ذلك ما قالته احدى النساء : (اني أحب ذلك الصبغ من اللون الازرق لانه يناسبني) ــ أو (لأنه يتفق ولون بشرتي) . ولقد ذهب

كثير من علماء النفس الى حد التصريح بأن حاسة الجمال فينا لا تنبعث الا من مثل هذه الروابط التي تلابس الاشياء السهلة أو السارة ، فنحن نقول الخدود الحمراء جميلة ، لانها دليل الصحة ، ونحن نظـن الايدي الحمراء قبيحة لانها تذكرنا العمل الشاق ، أو وعاء الغسيل !.

ومن الانصاف ان نقول هنا ان كثيرا من النجاح الذي يحرزه الفنان يتوقف على مهارته في اثارة روابط في اذهان الاخرين ، وفي تبنيه اصداء وصورا ومشاعر تتفق وصوره ومشاعره هو الى حد ما . واكثر ما يكون ذلك وضوحا في الادب ، على ان هناك تناقضا ظاهريا ، ذلك ان الكاتب مضطر ان يبني كتابه على محتويات ادمغتنا أكثر من اعتماده على محتويات دماغه هو ، وما عقل القارىء الا كصندوق الاصباغ للمؤلف ، ولكن مثل ذلك يصدق على كل الفنون ، فالموسيقي المبدع قد يكون أصم ــ كبيتهوفن مثلا ــ غير ان ذلك لا يضير ، فالسيمفونية في الحقيقة تتألف من أصوات يسمعها الحاضرون ، لا من الاصوات التـي سمعهـا أو تخيلها المؤلف في الاصل مثلك ليست الا هاديا له . واذا صح هذا في الاحاسيس الاولية فانه يصح من باب اولى في المعاني والاحوال التـي يقصد بتلـك الاحاسيس اثارتها . فعملية التوصيل في الفن ــ اذن ــ على عكس ما يتوقع ــ عملية معقدة وغير مباشرة .

ب ــ الى حد ما يمكنك ان تقول اننا جميعا ننتمي الى النوع الربطي. غير ان الروابط عند بعضنا تكون في الصف الاول ، وعند آخرين تكون أقل وضوحا ، أو تأخذ شكلا خاصا . ومن بين هؤلاء نستطيع ان نميز نوعا ثانيا صغيرا يتألف من اولئك الذين يبنون تفضيلهم ــ لا على ذكريات أو أفكار ربطية ــ بل على أساس التأثير النفسي الـذي تحدثـه الاصوات والالوان فيهم ، ذلك التأثير الذي يصفونه في عبارات انفعالية وفيزيولوجية، فيقولون : (ان هذا اللون القرمزي دافىء) و (ان اللون الاصفر يبهر العين)

و (اللون الاحمر يشعر الانسان بالحرارة من فرعه الى قدمه) • ويقولون في صورة (رفائيل) « العذراء والطفل » : (ما أجملها من فتاة ! وما أنضره من طفل صغير !) ويقولون في السيمفونية (C. Minor) (ان هذا القرع على الباب ليدخل الرعب في قلبك) • مثل هـؤلاء يسمون عـادة النوع الفيزيولوجي أو الذاتي ، وهم انما يعجبون بالمقـاطع الموسيقية والنغمات والصور أو يحبونهـا لأنهـا تهيـج فيهـم غرائزهم الحسية : فالطفـل Samuel ، وسيكي في حمامها ، والطبيب بجوار الطفل المحتضر ، وميدان المعركة ، والعاصفة في البحر ، وزواج à la mode من تصوير هوجارت ، كل هذه تمس فـي الانسان انفعالات الابوة أو الانفعالات الجنسية مسا رقيقا ، أو تثير فيه الميل الى الضحك ، أو الاحساس بالخوف ، أو المشاركة الوجدانية • ومما يتكرر كثيرا ذلك الاعجاب المتدفق بمهارة الفنان ، من مثل قولهم : (انها لتكاد تكون صورة شمسية) ، (أليس الفرد أو الدر يبدوان حقيقيين !) ، (انك لتكاد تستطيع أكل هذه الاعناب) • وهذه وما أشبهها تعتبر أحفل العبارات بالثناء •

ان الفن التجاري ليتجه ــ في الغالب الـى اثارة هذه الانفعالات ، فمنظر مدينة البندقية في اعلان سكك الحديد ، والكنائس المجللة بالبرد على تذاكر عيد الميلاد ، ومنظر الفتيات الناضرات على صناديق الشكولاته ــ كل هذه قد اختارها ارباب الاعلانات لما تثير من رغبات وجدانية ، لا لخواص أصيلة في التصوير • واذا لاحظت الاثمان التي تجلبها الاعمال الفنية وجدت صاحب الملايين ــ في الغالب ــ يدفع في الصورة العاطفية لعروس البحر ، أو الطفل الساذج من تصوير (جريتسه Greuze) اكثر مما يدفع في صورة شيـخ عجـوز أشيب اللحية مـن تصوير (ليوناردو) أو (رمبرانت) •

وفي هذا الشعور نجد مبادىء نظرية اخرى حديثة تذهب الى ان الفن ليس مرتبطا بالجمال ، وانما هو مرتبط بالتعبير عن الانفعالات . وأصحاب هذه النظرية لا يعنون بالانفعال مجرد رد فعل للجمال مفرد بسيط ، بل يعنون به أي انفعال خاص يمكن ان يصدر عن الطبيعة الانسانية ، وليس هناك شك في ان كثيرا مما يعتبر فنا ليس مرتبطا في أساسه بالتعبير عن الاحساس الذوقي أو اثارته ، بل بالتعبير عن الاحساس المنطقي أو الخلقي — انما تطور من الانفعالات البسيطة التي تصاحب الغرائز الاولية ، وانه لا يزال مختلطا بها . ومع ذلك فالفروق بينهما يظل قائما ، فالاحساس الذوقي انما يرتبط بالقيمة التي تكون للشيء أو للتجربة في حد ذاتها . اما الاحساس الغريزي فانه يرتبط بالقيمة التي تكون للشيء أو للتجربة في حياتنا الارضية العملية . فوجهة نظرنا في الحالة الاولى تنبهت لعامل سيكولوجي واحد من بين عوامل كثيرة ، ومن يدري فلعل ذلك هو العامل الظاهر في مزاج واضع النظرية نفسه .

جـ — وثمة نوع ثالث اذا أبدى ملاحظاته على الفن نسب لكل ما يجري نوعا من الشخصية ، ويسمى النوع التشخيصي أو النوع الخلقي Character Type . كقول أحد الاطفال : (ما أكثر ما يبدو هذا الابريق سمينا مرحا ! لكأنه يضحك عليك) وهؤلاء يتكلمون عن الالوان كأن لها صفات انسانية فيقولون : (ان هذا اللون الاصفر عنيف) و (هذا اللون الارجواني صاخب لعوب) ، و (اللون الاحمر الفاتح حلو شديد الرقة) . ويصف أحد الاشخاص لونا بقوله : (انه اصبغ من اللون الازرق شديد الحياء) . وشجرة الصفصاف عند أمثال هذه الطبائع الرومانسية ليست صفصافا ولكنها عروس غابة باكية ، والجدول ليس جدولا ولكنه عروس ماء ، ولقد يقولون ان البحر ليبدو غضبان ، وان المنظر ليبتسم ، وخط ما ليس عند هؤلاء خطا ، ولكنه شيء حي له حركة من نفسه ، واذا فكروا في

المنارات تصوروها سامقة الى العلا في جلال ، وهم يغتبطون برؤية طيور الماء طائرة لانهـم يستطيعون ان يحسوا فـي أنفسهـم أحاسيس تدليها الرشيق ، أو توازنها الخفيف الرقيق ، والظاهر ان هؤلاء تبدو لهم الاشياء الواقعة كأنها تتضمن تجربة شخصية يستطيعون هم ان يساهموا فيها بنوع مـن المشاركة الوجدانية الفعالة ، فالخيال ــ (رافلا فـي غبطـة وجوده الخاص •• يضع حركة في السحب ، وبهجة فـي الامواج ، واصواتا في الصخور) كما يقول راسكن •

انظر الى جماعة مـن النظارة يشهدون حركـة صعبة ــ يحدقون بأبصارهم في لاعب يتأرجح فوق الحواجز ، او الى لاعب بلياردو يرسل كرة الى الجيب ــ راقب النظـارة تجدهم يمسكون بأنفاسهم ، ويحركون أجسامهم كأن كل واحد منهم هو القافز نفسه يمرق نحو الحاجز ، أوكأنه الكرة المتدحرجة نفسها تحاول ان تنعرج نحو الركن • واذا عزفت موسيقى الرقص نغمة متساوية تراهم قد اهتزت لهـا اكتافهم فـي حركة موحدة • وتراهم في دور السينما يقومون بحركة فزع اذ يبصرون الشخص الشرير في الرواية ينقض بسوطه علـى البطلة ، أو يعـذب أخاها الصغير بحديدة محماة ، وتسمعهم بعد الانتهاء يشرحون لك كيف خيّل اليهم انهم نقلوا الى الشريط السينمائي وأحسوا آلام الضرب والحـرق فـوق جلودهم الرقيقة • وتراهم حتى في بسائط الاشياء تتكيف نفوسهم بما ينظرون اليه، كالخط المنحني يجعلهم ينحنون أو يحسون كأنهم علـى وشك الوقوع ، وشكل الحلزونيات يخلق فيهم احساسا بالضعف والغثيان • هذه التجربة ــ التي تزداد عند بعض الناس فتصل الى حد المرض ــ مقصورة في الغالب على عدد محدود من الاشخاص ، ولكنها قد قامت على أساسها نظرية مهمة في الفن تسمى عندهم فـي الاصطلاح Ein fuhlung أو Empathy ــ (الاتحاد الفني) ــ ومعناها ان تحس نفسك في الصورة أو الموضوع

(وهـذا غـير Sympathy ـ التي معناها ان تحس مع ••• ، أو ان تحصل عندك مشاركة وجدانية) • فعلى هذا الرأي يكون مـا ينتقل الـى نفس من يشاهد العمل الفني ليس تجربة الفنان فحسب ، بل تجارب الموضوعات التي تصورها ريشة الفنان وهي بالطبع متخيلة •

د ـ الفريق الاخير ـ وهو أنـدر الانواع ـ موضوعي قطعـا ، فأشخاص هذا الفريق يتخذون نحو الاشياء موقفا ذهنيا نقديـا أكثر منه انفعاليا ، وهم يقفون أمام الاشياء الجميلة في صمت واعجاب ، على حين يغرق غيرهم في اظهار الثناء والاعجاب ، وهم اذا آثروا لنا آثروه على أساس خاصيته باعتباره لونا ، لا على أساس ما يبقيه مـن روابط أو يحدثه من آثار • فهم يحبون زرقة اللازورد لأنها صافية وينفرون من الكوبلت لانه لون عتم جدا • ويبدو ـ في أوضح الامثلة ـ ان لديهم مقياسا لما ينبغي ان يكون عليه كل لون ، وانهم يحكمون على كل صبغ يعرض عليهم تبعا لانطباقه على ذلك المعيار الضمني أو لتقصيره عنـه ، فتسمعهم يقولون : (هذا الاخضر كثير الصفرة الى درجة تمنع أن يكون أخضر حسنا) • (أنا أحب هذا الاحمر لأنه يبدو مشبعا ومركزا ، اما الآخر فيكاد يكون أسمر) وكثيرا مـا تراهم ـ فـي الصور ـ ينصرفون عـن الموضوع والعنوان ويتحدثون عن النظام والتأليف والاصباغ ، ونواحي الانسجام ، والظل والنور • وهذا الفريق أقل الانواع عددا وابعد دائما عن الرضى ، وليس من الضروري أن يكونوا أصحاب أحسن ذوق جمالي ، ولكن ملاحظاتهم تشير الى قاعدة سيكولوجية واسعة : ذلك ان العقل الذوقي لا يبحث عن الجمال ويرتاح اليه فحسب ، ولكنه يشقى اكثر من سواه لمنظـر الدمامة الصريحة •

هذه اذن الانواع الاربعة التي انجلت عنها التجارب الاولى في هذه الناحية ، ونستطيع ان نلخص كل نوع كما يلي : ان ملاحظات الاشخاص

قد تدل على ان عنايتهم الرئيسية : (١) في الشيء الذي يعرض عليهم فعلا (وهؤلاء هم الفريق الموضوعي) ، (٢) أوليست في الشيء المعروض ولكن في آثاره على انفسهم (وهؤلاء هـم الفريق الذاتي) ، (٣) أوليست في الشيء المعروض ولكن في الاشياء التي يثيرها ويعيدها الى العقل (وهؤلاء هم الفريق الربطي) ، (٤) أو في الشيء ـ لا مجرد شيء ـ ولكن باعتباره شخصية حية (وهؤلاء هم الفريق التشخيصي) . أمـا تجـارب الأنواع فليست متمايزة تماما ، وكـل واحـد مـن هذه الاتجاهات الاربعة ـ في الحقيقة ـ موجود فينا جميعا حسب مزاجنا ونوع الشيء المعروض علينا ، فالفرق ـ اذن ـ فرق صفة غالبة أو درجة لا فرق انواع أو طوائف منعزل بعضها عن بعض انعزالا تاما . وهذه في بساطة أهم طرائق البحث وأهم النتائج لهذا الاتجاه السيكولوجي .

سيكولوجية الفراغ

على الرغم من كثرة الابحاث التي قام بهـا علماء النفس في مسائل العمل ، فان مسائل الفراغ لم تأخـذ باهتمامهم الا القليل ، ولكن الحال تغيرت في الحياة الحاضرة ، فقد أخذ العمل يقل شيئا فشيئا ، على حين أخذ الفراغ يزداد ــ لا في مقداره فحسب ــ بل في كيفيته وفي تنوعه ايضا •

اذا نظرت في هذه اللحظة الـى سكان بريطانيا وجدت حوالى ثلاثة ملايين من العاطلين ، يمكنك ان تعتبرهم ــ كمجموع ــ أكبر طائفة مـن طوائف الفراغ في تاريخ هذه البلاد • ومع ذلك فقد بدا الفراغ منذ وقت طويل قبل الازمة الاقتصادية الحاضرة يمتد الى عدد أكبر من الاشخاص ويشغل عددا أكبر من الساعات • وهذه الزيادة جاءت نتيجة لاسباب متنوعة، بعضها صدفة وبعضها مقصود • وأهم هذه الاسباب هو استخدام الآلات وقيامها بالاعمال التي كان يقوم بها الرجال والنساء من قبل • وهكذا جاء الانقلاب الآلي على أثر الانقلاب الصناعي ، فنحن اليـوم نسافر ونصنع ونزرع ونخيط ونصبغ ونكتب بل نحسب ايضا بواسطة الآلات ، وجـاء الفراغ الى حد ما نتيجة غير منتظرة من نتائج هذا التغيير ، وهو ــ كأشباهه من النتائج غير المقصودة ــ عرضة لأن يحتقر بل ان يطرح جانبا •

ليس هذا فحسب ، ولكن في الوقت نفسه ، ومن نواح اخرى ، بدأ الناس يطلبون ــ وهم بذلك شاعرون ــ نصيبا أوفر من الفراغ : فالعمال

الآن يضربون طلبا لساعات أقصر ، والرأي العام يميل الآن الى الفكرة القائلة بأن لكل شخص ـ أعاملا كان أم غير عامل ـ الحق في نصيب معقول من الفراغ ، محتجا بأنه اذا توقف الشخص عن العمل فترات مناسبة يستأنف بعدها عمله كان ذلك أدعى الى تحسين انتاجه . وعلى هذه النظرية يمكن ان يقال ان الفراغ انما يوجد لأنه ضرورة من ضرورات العمل ، على حين تجد آخرين ممن يشتغلون في أعمال غير لذيذة يدعون انهم انما يعملون طلبا للفراغ .

وهبنا منحنا الفراغ فماذا نحن صانعون به ؟ أكبر ظني اننا مضيعوه . فالظاهر ان معظمنا يعتقد ان الوقت الوفر انما يعتبر وفرا لأننا نستطيع أن نوفره .

أترى ان أخذنا لذاتنا بصورة جدية ، شاغلين كل لحظة من لحظات فراغنا حيث تجيء ، أفلا تكون النتيجة ضياع هذه اللذات ، ألسنا نرحب بهذه الفترات الفارغة لمجرد انها غير مملوءة ؟ انه لا شك ـ اذن ـ في وجوب الاحتفاظ بهذه اللحظات والاستجمام الهادىء ! فلو اننا ـ مثلا ـ لم نسترح في فراشنا ، حيث نتيه في غيبوبة تامة ثماني ساعات من كل أربع وعشرين ساعة لناءت اجسامنا وعقولنا وأعياها الكلل !

أنا مستعد الآن لان اعترف بأن الجسم في حاجة الى فترات نوم ، ولكني لست مستعدا ان أستنتج من هذا ان العقل في حاجة الى فترات اضافية من البطالة . فان لدى بعض الناس صورة عن العقل كاناء مجوف يحتوي كمية محدودة من الطاقة العقلية ، وهم يفترضون ان هذه الطاقة العقلية تأخذ في النفاد شيئا فشيئا اثناء قيام الشخص بالعمل ، ولذا يجب في عرفهم ان يقف العقل عمله في فترات منظمة يزود فيها من الطاقة زادا جديدا . قد يكون هذا صحيحا على العموم من وجهة النشاط الجسمي ، ولكن ليس هناك من الادلة الكافية ما يحملنا على الاعتقاد بأن لدينا ايضا

مقدارا من الطاقة النفسية يمكن ان يدخر ويستنفد ثم يملأ من جديد كما تملأ صفائح البترول •

ولقد اجريت حديثا بحوث مدهشة ، تدل على ان الاعياء العقلي الحقيقي قلما يحدث ، ونحن اذ نشكو جهادا عقليا فليس الذي أجهد أو استنفد هو طاقتنا ، بل ميلنا ، ولا نكون حينئذ في حالة اعياء بل حالة ملل • فقد يرجع أحدنا يوما الى المنزل معلنا ان دماغه قد بلي من التعب ، ولكنه لا يكاد يبدأ قراءة رواية بوليسية أو لعب شيء من الورق حتى يجد ذهنه على أتم ما يكون يقظة وحيوية • انه لا شك في ان هناك نوعا ما من التعب الحقيقي في معظم الحالات ، ولكن ما تحسبه تعبا عقليا ، اذا حللته وجدته في الغالب تعبا جسميا ، يرجع من ناحية الى تجمع السموم داخل الجسم ، ومن ناحية اخرى الى ما يصيب العضلات (لا الطاقة العقلية) من إعياء •

اني اعترف ان الكلل العقلي قد يكون عقوبة الارهاق الزائد ، ولكنه ليس نتيجة تعب عقلي أو ازهاق في المخ (كما يحسب الكثيرون) ، بل هو اما نتيجة للمعيشة غير الصحية التي تترتب في العادة على العمل العقلي ، واما نتيجة قلق واضطراب فكر وشعور بخيبة ، وهذا هو النوع الغالب ، أي انه بالاختصار نتيجة لاسباب وجدانية اكثر منها عقلية •

اذن فالفكرة القديمة التي ترى ان المبرر الوحيد للفراغ هو ان يعطينا فترة راحة نسترد فيها نشاطنا العقلي ، انما هي فكرة مبنية على تشبيه خاطىء ، فليس من اللازم ان تكون المسامحات خلوا من العمل ، ولا ان التخصص نهاية كل اسبوع للنوم • ان احسن طريقة للاستجمام ليست في الوقوف عن العمل ، بل في تنويع العمل العقلي ، وما العقل المستريح بتاتا عن العمل بمستفيد ، ولكنه معرض للضرر ، فهو في الحقيقة أقرب الى ان يصدأ منه الى ان يستجم •

على ان الفراغ لم يتغير في مقداره فقط ، بل في طبيعته ايضا ،

فمخترعات العلم لم تقصر ساعات العمل فحسب ، ولكنها أوجدت مصادر جديدة للتسلي في فترات الفراغ ، فالسيارة والسينما والتلفزيون والراديو كل هذه وسائل للتسلية والتحرر من الجهد، لم يحلم بها آباؤنا وأجدادنا ٠ ولقد أخذت الدولة ــ في طريقة مباشرة أو غــير مباشرة ــ تساعد هــذه الظاهرة ، فلدينا الآن مكتبات عامة ، وملاعب وحمامات عامة ، ومعارض فنية ، ومتاحف وفرق موسيقية ، وهيئة للاذاعة قامت بتشريع من البرلمان ، وكثير من الممالك الاوروبية فيها مسارح ودور اوبرا تعضدها مالية الدولة٠ بهذا أصبح الفراغ أكثر مــن مجرد فتــرة جوفاء بين مسافتين من العمل ، وصارت جهودنا في طلب اللذة أشد واكثر جلبة وتنوعا ، واهدى سبيلا في بعض نواحيها ٠

ما أثر هذا التغيير المزدوج اذن ؟ لقد تميزت المدنيات الراقية دائمــا بمنتجات فراغها ، اكثر مما تميزت بمنتجات عملها ٠ فهل هناك أي أمل في ان نصل في هذا العصر الديمقراطي من طريق الفراغ الى مثل الثقافة الراقية التي وصلت اليها طبقات الفراغ المترفة في بلاد اليونان وفلورنسه وفرنسا؟

لنبدأ نحن علماء النفس فنبحث كيفية صرف الرجــال والنساء الآن أوقات راحتهم ؟ ما الذي يدفعهم الى اختيار هذه المتعة أو تلك ؟ اذا مضينا فــي بحث كهذا فقد نستطيع ان نتنبأ بالنتائج التــي سيتمخض عنهــا هذا الانقلاب في طرائق حياتنا ، وان نعرف نوع الرجال والنساء الذين تخلقهم الظروف الجديدة لا في العمل فحسب ولكن في الفراغ ايضا ٠

ما أعظمها من فائدة لو اننا استطعنا ان نقوم باحصاء لانواع ما يشتغل به الناس فــي ساعات فراغهم ، علــى مثــال احصــاء الاعمال التي تعتبر ــ رسميا ــ اعمال (كسب) ٠ ليس هناك من شك في اننــا سنجد بعض الشواغل ــ الى حد ما ــ تدخل تحت النوعين معا ، فما هو عمل عند فرد ما ، قد يكون هواية عند آخر ٠ وانك لتجد احيانا ان مــا يشتغل به بعض

الناس في مسامحاتهم وفي أمسيتهم ليس الا استمرارا لما تفرضه عليهم تجارتهم أو مهنتهم • اقرأ حياة أي عصامي مشهور مثل (اديسون) أو (لنكولن) او (فورد) تجد ان هذا هو عين ما شغل به فترات الفراغ ، وبذا ترك الكسالى من ورائه ، ووصل الى قمة النجاح والمجد • على انك لو نظرت الى شخص أقل من هؤلاء طموحا وجدت أحب شواغل الفراغ اليه في الغالب ما كان مخالفا لنوع عمله ، لا ما كان استمرارا له ، ووجدت اختياره عبارة عن رد فعل يطلب فيه مهربا من الحياة اليومية القاسية • فهو في ساعات راحته يجري وراء اشباع بعض قدراته الانسانية التي لا يشبعها اثناء عمله في مكتبه أو مصنعه • وحيث يكون عملا ثقيلا شاقا على جسمه غير شاغل لعقله ، تجده يملأ لحظاته الحرة بوسائل من التسلية ويشتري صندوقا من السجاير لنفسه وآخر من الحلوى لرفيقه ، ويستعد للاستمتاع بما يعرض عليه من احداث مفاجئة ومغامرات تروع القلوب والالباب •

في الولايات المتحدة يذهب ١٢٠ مليونا من الناس الى دور السينما كل اسبوع ، ويصرف الجمهور الامريكي من دخله السنوي ١٣ ٪ على الطباق و ١١ ٪ على الحلوى و ١٠ ٪ على السينما و ٨ ٪ على الالعاب الرياضية (ويدخل في ذلك رحلات النزهة في السيارات) و ٥٠ ٪ على ما يسمونه المشروبات غير المسكرة و ٣ ٪ على الراديو و ٠٫½ ٪ فقط على الكتب •

فما تأثير كل تلك المستحدثات على العالم الجديد ؟ لنبدأ فنبحث اولا آثارها في مختلف طبقات الهيئة الاجتماعية • ان اظهر اثر لها من تلك الناحية هو محو الفروق بين الطبقات ، فوسائل التسلية التي كانت وقفا على الاغنياء اصبحت الآن انواع رخيصة منها في متناول الطبقات الوسطى والفقيرة ، حتى لقد صار عامل اليوم في الواقع يحظى من الالعاب ووسائل اللهو بأكثر مما كان يتمتع به الغني منذ قرنين • وهو وان كان استعماله

لوقته خشنا وغير مهذب ، الا انه آخذ في الحرص على وقت فراغه وفي الاصرار عليه • وهو يطلب من المسامحات مثل ما يتمتع به صاحب العمل الذي يوظفه •

ولكن هناك نتائج اخرى لا تقل عن هذه وضوحا : فلقد زادت سرعة السفر ، واصبح الكثير منه ميسورا في ساعات من الفراغ قليلة ، والمسافة التي كان الشريف يقطعها على ظهر جواده في يوم، اصبحت اليوم تقطع في أقل من ستين دقيقة في سيارات الاسفار الكبيرة • وقد نتج عن هذا ان كثر ذهاب الرجال والنساء من كل طبقة الى الريف ، ومشيهم في مناكب الارض — على نمط السياح الامريكيين ، وهم في تجوالهم هذا يختلطون بالطبقات الميسورة على قدم المساواة ، فكاتب المصرف يسافر الى مكان عمله أو يذهب لمشاهدة الالعاب الرياضية مع البارون جنبا الى جنب، والفتاة العاملة في أحد المتاجر ترتدي ثيابها المسائية وتذهب بقطار تحت الارض الى المطاعم الفخمة في قلب لندن • وهكذا يستطيع الفقير ان يراقب الغني ، وان ينتقد الغني ، وان يقلد الغني • وهكذا أصبحت الملابس والآداب والعادات — في كل بلد وفي كل قطر متمدين — سائرة الى التوحيد •

ولقد زاد ظهور السينما والراديو في هذا الاثر : فذو الكوخ الحقير يملك الآن جهاز راديو لسماع الاذاعة ، وأفقر الاسر تزور دار السينما مرة كل اسبوع ، وهم يرون على الشاشة سلوك الاغنياء (أو على الاقل كما يبدو ذلك السلوك لفن مخرج هوليود — او كما يظن ذلك المخرج ان هذا هو السلوك الذي يتوقعه الجمهور) • وبهذا يتميز نموذج واحد غالبا من التصرف ، وتأخذ الفروق المحلية في الاضمحلال ، وان الراديو الآن لينقل موسيقى الرقص والاغاني والكلام الفصيح الى أبعد الاكواخ ، فلم يعد اسلوب النطق في مدرسة ما من المدارس العامة لهجة غير مفهومة للجماهير، ولم يعد يرى الناس فيها مجرد حذلقة وادعاء •

ليست الفوارق بين الطبقات فحسب آخذة فـي التلاشي ، بـل ان الفوارق بين الريف والحضر سائرة الى هذه الغاية ، فقد اضمحل او كاد ذلك الفارق بين حياة القرى وحياة المدن ، وقد اقتربت المدن مـن القرى والقرى من المدن ، وليس في انكلترا الآن من قرية صغيرة الا بجانبها مدينة أو بلد ذو سوق • تصور الحياة الريفية في قرية صغيرة في انكلترا في أحد الأمسية الشتوية منذ قرن أو قرنين من الزمان : أما الرجال فربما مشوا الى حانوت القرية ، وأما سائر الاسرة فقد تجمعوا فـي حجرة صغيرة مملوءة بالدخان تضيئها شمعـة ذابلة أو فتيلة مصباح صغير ، لا يستطيعون قراءة أو كتابة ، ولا يجدون ما يتحدثون عنه الا النزر اليسير • واذا طالت عليهم اسابيع الملل لم يجدوا ما يسلون به الوقت الا البحث عن العفاريت في أضواء الشفق • وكان الناس طوال القرن التاسع عشر يهجرون القرى الى المدن جريا وراء التسلية والابتهاج • أما الآن فقـد انعكست الآية اذ انتشرت مستحدثات المدن في القرى ، فأصبحت كل بقعة من الريف ضاحية لأقرب مدينة اليها • وانك لتستطيع الآن ان تسمع حيثما كنت في أبعد الاماكن أحدث الروايات وأحدث الاخبار والالحان الموسيقية ، على الراديو أو على شاشة التلفزيون • والرجل الذي يعمل في مدينة ليدز أو ليفربول أو لندن يستطيع أن يعيش خارج البقعة الصناعية ، وان يسافر الى مقر عمله جيئة وذهابا بالترام أو القطار ، واذا اضطر أن يعيش بجوار عمله استطاع أن ينجو من الدخان والضوضاء بالخروج فترات محدودة في نهاية كل اسبوع للعب (الغولف) أو بالتجول على القدم الى مسافات بعيدة •

ان النتائج المباشرة لكل هذا ظاهرة الوضوح : عقل أكثر حيوية عند الريفي ، وجسم أصح لسكان المدن • ليس هذا فقط بل ان العالم كله أخذ يتقارب بعضه من بعض منغير نظر الى بيئة خاصة : فالغني والفقير والمتعلم وغير المتعلم والمدني والقروي كـل أولئك يتقاسمون الآن لذات واحدة ،

يلهون بنفس الملاهي ، وتجد لهم تبعا لذلك افكارا ومعضلات مشتركة، فاذا تقابلوا فهم كل منهم لهجة الآخر ، لا بل اطمأن الى وجهة نظره • وعلى هذا فقد بدأت تظهر روح جديدة من الاخوة • واذا أراد العامل الآن ان يستعمل وقت فراغه في أغراض سياسية كان أكثر فهما لما يفعل ، وأقدر على افهام الآخرين ، واذا ارتقى ابنه في المنزلة الاجتماعية الى درجة أعلى لم تكن الحياة جديدة غريبة عليه غرابة تحرجه ، فان آداب السلوك اليوم آداب مجتمع قائم على المساواة ، والاختلاط الاجتماعي قد صار في كل نواحيه أسهل وأحفل ، وأكثر حرية ، وأقل تعرضا لأن تكدر صفوة التقاليد الضيقة والتحفظ وسوء الظن المتبادل •

ثانيا ــ لنبحث الآن هذه التغيرات في الجنسين : لقد فتحت الآلة الكاتبة والهاتف وكل الظروف الجديدة الصناعية والتجارية ابوابا جديدة للنساء ، واعطتهن استقلالا ، وجعلت لهن ايرادا خاصا • فالمرأة اليوم تغادر المنزل الى مكان العمل ، وهي بالضرورة تريد ان تغادر المنزل بحثا عن اللذة •

وليست المرأة التي تعمل خارج المنزل هي التي انتفعت وحدها بهذا التغير ، فلقد كانت جداتنا يشكون من ان عمل المرأة لا ينتهي ، وكان أزواجهن يجيبون بأن مكان المرأة هو المنزل • أما اليوم فقد قللت المخترعات الحديثة العمل في البيت كما قللته في المصنع ، فالكهرباء تدفيء حجراتنا وتنيرها ، وتطبخ غذاءنا ، وتدير لنا المصاعد وآلات التنظيف • وقد قل عدد الاطفال وأصبح شراء الغذاء الجاهز المحفوظ في العلب أرخص من ذي قبل • فالزوجة والام قد اصبح لديها ــ بعيد الحرب العالمية الاولى ــ وقت اوسع ، ولديها من الفراغ ما يعادل نصيب زوجها أو أخيها ، وهي تطالب بقسط مساو لهما من الحرية في استعمال ذلك الفراغ •

ما هي النتيجة المحتمة لكل هذا ؟ اولا ــ مساواة بين الجنسين آخذة في الازدياد ، وثانيا ، اختلاط بين الجنسين أكثر حرية • وقد ساعد اختراع

الاقمشة الخفيفة وما جلبته معها من تغير في ملابس الجنس اللطيف على ان يأخذ النساء والبنات بقسطهن من الالعاب ، وعلى ان يشاركن المتجولين في الريف في تجوالهم الطويل • ومن هنا قل الاختلاف في وجهات النظر العقلية بين الجنسين ، واصبح الاولاد والبنات يعرف بعضهم عن بعض اكثر مما كان يعرف آباؤهم •

وهكذا أصبحت الحياة بين الجنسين وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة سائرة الى مستوى عام متشابه • غير ان هناك ظاهرة اخرى لعلنا نستطيع تمييزها : ذلك انك تلمح في داخل كل جماعة ــ بالرغم من ان المستوى اصبح اكثر توحدا ــ عددا من الانواع اكثر ، فان الجماعات المختلفة لا تكاد تشرع في الامتزاج حتى تأخذ عاداتها وقوانينها الاخلاقية في التضارب ، ويبدأ يمحو بعضها بعضا ، فليست فتاة المصانع اليوم بمجبرة ان تلبس اللفاع وأحذية الخشب ، وليست المرأة اليوم من أي الطبقات بملزمة دائما أن تلبس الثوب النصفي ، وان تمتنع عن لبس السراويل الطويلة أو القصيرة • وترى الناس في كل انحاء العالم قد بدأوا يغيرون أفكارهم وعاداتهم بالسرعة التي يغيرون بها ملابسهم فهم يجربون أطعمة جديدة ، ويطيرون الى أماكن جديدة ، ويفتشون عن مصادر للهو لم تطرق من قبل ، وترى في كل ناحية عادات قديمة تنزع ، وميلا قويا الى تجربة كل جديد •

لقد بحثنا الآن امر الرجال وأمر النساء ، فما شأن الاطفال ؟ يخيل الي ان أهم تغيير ذي بال في توزيع الفراغ هو زيادة الفراغ المسموح به الآن للطفل ، فكثير من الامثال التي كانت عزيزة على جداتنا من مثل : (ينبغي للطفل ان يرى ولا يسمع) و (ان الاقلال من العصا مفسدة للطفل) ، قد طوي زمانها ، وقل ان يتمثل بها اليوم أحد • والطفل الحديث في المدرسة وخارجها يشجع الآن على الاسترسال في حبه الطبيعي للنشاط الحر الطليق•

وقد قل الان تكليف الاطفال بالعمل خارج ساعات الدرس ، من مثل بيع الجرائد والاتجار في الطرقات وتوزيع اللبن في الصباح ، وقد ذهبت الآن الى غير رجعة ، تلك الايام التي كان يكلف فيها الاطفال تنظيف المداخن ، أو يعملون كالرقيق في المصانع . وما ساحات اللعب الآن وميادينه ــ من ملاعب (كريكيت) في الحدائق العامة ، ومن أرض مخصصة للالعاب الرياضية خارج المدن ــ وما الانجازات الريفية للاولاد والبنات بعد انتهاء الفصل الدراسي ، ما هذه وسواها من المستحدثات الا دلائل على اننا نقدر حق القدر استعمال الطفل حريته واستمتاعه بها . ولقد تغيرت التربية نفسها بعد ادخال ما يسمى طريقة اللعب في حجر الدراسة .

غير ان المواد الدراسية التقليدية ــ مهما اتقنت طريقة تعليمها ــ ليست كافية في اعداد الطفل لمستقبله في الحياة ، بل ربما كان هذا الذي ادخل على الحياة المدرسية مغريا للشباب على استثقال العمل حين يفرض عليه ، وعلى التسكع والبطالة بعد انتهائه . واذا كان الواجب كما يخبرنا الثقات ان تكون التربية للحياة ، فقد وجب ان تشمل هذه التربية اعدادها للعمل . ولقد خطت المدرسة في هذه السبيل اولى الخطوات اذ أخذت على عاتقها مراقبة وقت اللعب كما تراقب ساعات العمل ، واصبحت الالعاب المنظمة الآن جزءا ظاهرا في نشاط كثير من المدارس الحديثة . اما خارج المدرسة فان أهم حركة ذات مغزى هي حركة الكشافة والمرشدات ، وتلك ظاهرة لا تمثل الطريقة الجديدة في استعمال الفراغ فحسب ، بل تمثل وجهة النظر الجديدة نحوها ايضا . ولقد تحول الشعار القديم في هدوء فأصبح الآن : (العب اثناء العمل ، واعمل اثناء اللعب) ــ وتلك قاعدة سيكولوجية صحيحة ، جديرة ان يعمل بها الراشدون ايضا .

ولكن العامل الذي كان له اكبر تأثير في وقت الفراغ عند الطفل هو السينما ، فما هو مبلغ أثرها في هذا العقل النامي ؟ أهي تشجع الحدث على

تقليد الجرائم التي يشاهدها على الشاشة ؟ أهي تقوده الى ان يظن المثل الاعلى للعيش هو تلك الحياة المرحة المستهترة التي يحياها نجوم السينما في هوليود ؟ أم هي تعطيه صورة حقيقية لهذه الدنيا العريضة ، وتساعده على ان يتعمق ادراك ما علم في المدرسة ، وعلى ان يفهم ظروف الحياة حوله فهما واضحا ، وبذلك تعده لأن يأخذ مكانه الحق في الحياة رجلا تام النمو ؟

هذه الاسئلة وأشباهها ليست الا جـزءا مـن معضلة أكبـر يمكن تصويرها في السؤال الآتي : ما الذي يدفعنا جميعا ، رجالا ونساء واطفالا الى صرف أوقات فراغنا في هذا النشاط الذي يبدو عديم الجدوى ؟ ليس هناك من حيوان آخر في الوجود كله يبذل مثل هذا المجهود وتلك الطاقة في عمليات مثل هذه غير ضرورية . فما الباعث على هذا ؟ نحن في العادة ننسب هذا الى البحث عن اللذة ، ولكن هذه سيكولوجيا خاطئة فالذي تجد في طلبه هذه المخلوقات ليس اللذة بل هزة الاستثارة ، وليس السعادة بل نشوة الطرب .

ان الاستثارة لسهلة ، وسبيلها تنبيه الغرائز الفطرية التي كانت تشبع تمام الاشباع في الازمنة الوحشية الاولى ، في الجهاد اليومي للبقاء ، من تصيد للطعام ومقاتلة للعدو وضرب في الارض بحثا عن المراعي الخصبة . ولولا هذه الميول الفطرية ما عاش الانسان ولا قبيلته . اما الآن — في حياة الجماعة المتمدينة — في المصنع أو المتجر أو المكتب ، فلا حاجة الى عمل هذه الغرائز ، ومع ذلك فنحن لا نزال نتوارثها ، ولا سبيل الى محوها وستظل أقوى العناصر وأعمقها في تركيبنا العقلي ، ومن هنا وجب لهـا منفذ في الفراغ واللعب .

ولكن العامل الذي كان له اكبر تأثير في وقت الفراغ عند الطفل هو السينما ، فما هو مبلغ اثرها في هذا العقل النامي ؟ أهـي تشجـع الحدث لحاجات الظمأ والجوع ، وتحولها الى ضروب من تمضية الوقت ، وصالة

الموسيقى والرقص والرواية الرخيصة كلها تحاول من طريق خفي ان تنبه الغريزة العامة ــ غريزة الجنس ، كمـا ان المصارعة وكرة القدم والكريكت وسائر الالعاب التي تحتوي منافسة ومباراة انما تنبعث في الغالب من غريزة العدوان ، وغريزة حب الظهور تجد اشباعهـا فـي الملابس ، امـا غريزتا الاستطلاع والتجول فانهما تجعلان منا جوّالين نضرب في الارض ونملأ أعيننا من كل ما يصادفنا ، وغريزة القطيع تدفع بنا زرافات الـى مشاهدة المباريات والسباق وما شابههما ، أو علـى الاقل تجعلنـا نزرع الشوارع المضاءة جيئة وذهابا ، والميسر والرهان وكسب جوائز الصحف كلها تتوقف على الاستثارة الشديدة لغريزة التملك ، والى ما في توقع اشباعها اشباعا دسما سريعا من لذة بالغة • وهناك اخيرا أشرطة السينما وما لها من مستقبل أوسع مما لاي منبه آخر ، اذا تزودنا بأحلام يقظة جاهزة ، نستطيع بهـا ــ طول عصر يوم أو مسائه ــ ان نتخيل أنفسنا ابطالا مغامرين ، أو بطلات فاتنات ، أو أمراء أو من ذوي الملايين ، أو نجوما مسرحية ــ علـى حسب أجناسنا وأذواقنا •

يمكن ان نقول ــ اذن ــ ان كل ما نشغل به أنفسنـا وقت الفراغ يحقق ــ في طريقة مصطنعة خيالية في العادة ــ تلك الرغبات الفطرية التي تبقى في ساعات العمل غير مشبعة ، بل الى حد ما مكتومة • والواقع ان نظام الحياة الصناعية الرتيب الممل يثير ــ بطريق رد الفعل ــ رغبة ملحة في المؤثرات الحسية ، وهذه الملذات البدنية انما تخدم تلـك الرغبة • فكأن الاستثارة الوجدانية ــ لا السرور ــ هي التي تهيىء للعامل المتعب أنجع علاج طبيعي وأسرعه •

ترى اذن مـاذا سيكون التأثير النهائي ــ لهـذا الظمأ الجديد الـى الاستثارة ــ على الجيل الناشىء ؟ والى أين يقودنا ؟ أليس سينشىء لنـا صنفا من الناس هازلا ، غير أهل لتحمـل المسؤوليات ، يحـاول ان يغرق

متاعب العمل ؟ ألم نفقد بهذا تلك الصبغة العقلية الجادة التي امتاز بها العصر الفكتوري ؟ ألسنا بهذا نرجع القهقرى الى نوع من الحياة أكثر خشونة وامعانا في وادي الغريزة والفطرة ؟

أظن اننا في غير حاجة الى ان نحكم على الجيل الناشىء بعد الحرب العالمية حكما قاسيا ، فلو اننا استطعنا ان نرجع الذاكرة الى نحو مائة سنة مضت ، ونستعرض أنواع النشاط الفراغي فيها ، لوجدنا نفس الغرائز ممثلة في معظم تلك الانواع ، في شكل قد يكون أقل رقة وتهذيبا من الوقت الحاضر . والا فهل يعتبر سباق الكلاب أحط في التسلية من قتال الديكة وارسال الكلاب على الدبية ؟ وهل السينما أكثر من الحانة اضعافا للاعصاب ؟

على انه ما دامت الغرائز موجودة ، فقد يكون أفضل ان تجد لها منفذا آمنا ، من ان تكتبت كتبا . أضف الى ذلك هذه الغرائز ــ كما اسلفنا ــ يمكن ان تدرب وتعلى ، وكل ما نحتاجه في هذا هو دراسة أحسن طريقة لاستعمال الفراغ ، فمعظمنا فاشلون في فن الحياة لأننا تعوزنا المعرفة والمران ، وليست اللذات الرفيعة الا أذواقا كونت ثم هذبت، وما التمتع بالموسيقى أو الرسم أو الادب ــ عند من يتمتعون به ــ الا شيء قد جاءهم من طريق الصدفة السعيدة . ولكن لم نترك ذلك للصدف ؟ ان الجيل الناشىء يجب ان يعلم كيف يستعمل ساعاته الحرة التي لا تفتأ تتزايد. خذ مثلا غريزة الانشاء أو التركيب : ان هناك قوما يجعلون شغلهم الشاغل في أوقات فراغهم الاتجاه الى الانشاء أو التركيب أو كسب المهارة الضرورية ، ولكن ما السر في قلة عددهم ؟ ان اللذات الرفيعة ــ لو عرفنا ــ أعظم اللذات ارضاء ، واكثرها ثمرة ، وكثير من الاعمال العظيمة التي خلفها لنا الماضي كانت نتيجة لبعض لحظات من الفراغ . بل ان كثيرا من عظماء الكتاب ، وأكابر العلماء ، ومشهوري الرسامين والموسيقيين ، انما أنجزوا

الاشيــاء التــي اشتهــروا بهــا فــي أوقــات فراغهــم : فقــد كــان « كيتس » (الشــاعر) مســاعد صيدلــي ، وكــان « لام » (الاديب) كاتبا فــي دواوين الحكومة ، وكــان « ماثيــو ارنولــد » (الشــاعر الناقد) مفتش مدارس • وقد نظر معظم هؤلاء الى ما نسميه نحن عملهم فرأوا فيه ــ لا عمــلا ــ ولكن شــاغلا مفيدا لساعات فراغهــم • ولعلكم تذكرون كيف اعجبت الملكة فكتوريا بكتاب (ألس في بلاد العجائب) حتى لقد بلغ من شغفها به ان طلبت نسخة من الكتاب التالي الذي أخرجه مؤلفه بعد ذلك • وما كان أشد ارتياعها حين جاءها الكتاب فاذا عنوانه (الكتاب الخامس من اقليدس بالطريقة الجبرية) ، ولم يكن قد خطر على بال الملكة من قبل ان كتاب (ألس في بلاد العجائب) لم يكن الا تسلية تسلى بها في مسامحته استاذ جامعي في احدى كليات اكسفورد ، كان عمله الرسمي ان يحضر طلبة الجامعة لامتحان الدرجة في العلوم الرياضية •

هناك الآن علائم تدل على ان الجيل الجديد قد بدأ ينظر الى الامور نظرة جدية ، فقد بدأت تظهر حركات للشباب غير مفروضة من الخارج بل ينظمها الشباب أنفسهم • وهــذه الحركــات تختلف باختلاف الاحوال ، فبعضها يرمي الى الرجوع للطبيعة ــ الى حيــاة أصــح واهدأ وأبعد عن ضوضاء المدينة ــ وبعضها يرمي الى الاصلاح الاجتماعي • أضف الــى هذا ان ما يحدث في المدرسة عند بدء ادخال النظام الحر محتمل ان يحدث في الطبقات الحديثة التحرير ، واول مرحلة في هذا اباحة ثائرة ، وفوضى لا ضابط لها ، ثم يعقب ذلك بحث وراء انواع من النشاط اكثــر ارضاء للنفس ، واني أعرف شابا بناء ، أمنيتــه الوحيدة ان يجيــد كتــابة اللغة الانكليزية ليستطيع ان يؤلف رسالة من الطراز الاول على موضوع البناء باللبن • وأعرف كذلك سائق سيارة اجرة ، اكبر آماله ان يجيد العزف على جميع الآلات الموسيقية • أنا بالطبع لا اتخــذ هذين نموذجــا ، ولكنهما

يؤكدان لي انهما يجدان من اللذة والارتياح في هـذه الهوايات الجديدة اكثر مما يجدان في لعب الورق أو حل ألغاز الكلمات المتقاطعة .

وعندي ان التفكير السيكولوجي لهذين أصح من تفكير بعض الناس الذين يظنون انهم يستطيعون الحصول على اللذة من غير عمل في سبيلها ، اللهم الا ان يغمضوا أعينهم ويفتحوا أفواههم وينتظروا السرور ان ينزل عليهم ، شأنهم في ذلك شأن الطفل في حفلة من حفلات عيد الميلاد . ان مشاعرنا تسير حسب قانون متناقض في ظاهره ، ينص على ان اللذة في نفسها أقل ارضاء لصاحبها من العمل اللذيذ ، فالتهام اللذات يشبه في الواقع التهام خمر النبيذ أو البراندي ، وشأن الاستثارة العقلية شأن (الكوكتيل) والكوكايين ــ سرعان ما تنطفيء جذوته ، ويترك وراءه من السآمة والملل اكثر مما أراد ان يطرد ، ويدع صاحبه في حاجة الى مقادير منه أقوى وأكبر ، حتى يقضي من المتعة أربه .

ان اللذة في نفسها ليست هدفا ، ولكنها طريق مسدود من أحد نهايتيه ، وأضمن وسيلة الى السعادة ألا تتجه نحوها مباشرة ، ولا يمكنك ان تشتري السرور بالجنيهات والشلنات والبنسات كما تشتري المثلجات أو تذكرة السفر الى (مونت كارلو) ، وانما يفيض عليك ويغمرك دون ان تبحث عنه وتتوقعه ، وانت منغمس في عمل آخر . فابحث اذن عن شواغل للفراغ تدر عليك مقدارا متزايدا ــ لا متناقضا ــ من الرضى والارتياح ، وانك واجد هذه الشواغل في كسب مهارة أو بناء أثر خالد من آرائك ومن نشاطاتك . ان أعظم الشواغل ارضاء لصاحبها هي تلك التي تقوده من انتصار ضئيل الى آخر ، دون ان تصل الى نهاية لا يمكن تخطيها ، وتعلم لعبة ما ابلغ في جلب السرور من مجرد مراقبتها ، ومحاولة تذوق انواع جديدة من الجمال بهجة لا حد لها . وأحسن من هذا كله محاولة خلق انواع جديدة من الجمال غير ان هذا بالطبع يستلزم عملا وجهدا متواصلا

ـ (لا كسلا وتراخيا) ـ عملا تأتيه مختارا خارج دائرة عملك الرسمي الذي تكسب منه القوت ، ولكنه ليس مجرد اجهاد ، بل هو عمل يتفق وما تهفو اليه نفسك وتلذه .

وهكذا ، على ممر الزمن ، قد يكون القسط الذي يقوم به الفرد نحو ترقي نفسه ، أو نحو حياة الجماعة ، لا نتيجة ساعات عمله ، ولكن نتيجة ساعات فراغه . وهكذا يتسع الفراغ فتختفي الحدود بينه وبين العمل أو تكاد . فمتى وصلنا ـ اذن ـ الى المثل الاعلى في هذا فسنجد أنفسنا في الجنة التي وصفها الكاهن المجنون (تلك الجمهورية التي يكون فيها العمل لعبا واللعب حياة : ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة) .

للمترجم

١ ـ اللصوص ـ تأليف فريدريك شيللر	دار مكتبة الحياة ـ بيروت	١٩٦٢
٢ ـ زواج الحب ـ تأليف ماري ستوبس	مكتبة المعارف ـ بيروت الطبعة الخامسة	١٩٦٣ ١٩٧٤
٣ ـ هيلين ـ تأليف فيكي باوم	مؤسسة النوري ـ دمشق	١٩٦٣
٤ ـ في التربية ـ تأليف برتراندرسل	دار مكتبة الحياة ـ بيروت الطبعة الثانية	١٩٦٤ ١٩٨١
٥ ـ الممارسة والنظرية البلشفية ـ تأليف برتراندرسل	دار الانوار ـ بيروت	١٩٦٥
٦ ـ مشكلات نمو الاطفال ـ تأليف عمانويل ميلر	دار الانوار ـ بيروت الطبعة الثانية ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت	١٩٦٦ ١٩٨١
٧ ـ التربية والنظام الاجتماعي ـ برتراندرسل	دار مكتبة الحياة ـ بيروت الطبعة الثانية	١٩٦٦ ١٩٧٨
٨ ـ الصراع على سورية ـ تأليف باتريك سيل	دار الانوار ـ بيروت الطبعة الثانية ـ دار الكلمة ـ بيروت الطبعة الثالثة ـ دار طلاس ـ دمشق	١٩٦٨ ١٩٨٠ ١٩٨٤
٩ ـ هل للانسان مستقبل تأليف برتراندرسل	دار دمشق للنشر ـ دمشق	١٩٦٩
١٠ ـ اخلاقهم واخلاقنا ـ تأليف ليون تروتسكي ، جون ديوي، جورج نوفاك	دار الآفاق الجديدة ـ بيروت	١٩٨٤

١١ ــ علم النفس الديني ــ تاليــف سيريل بيرت	دار الآفاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٤
١٢ ــ مثل عليـا سياسية ــ تاليف برتراندرسل	دار دمشـق للنشر ــ دمشق	١٩٨٠
١٣ ــ معنى التحليل النفسي ــ تاليف ارنست جونز	دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨٠
١٤ ــ الفـوز بالسعـادة ــ تاليــف برتراندرسل	دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨٠
١٥ ــ من القصص العـالمي ــ تاليف تولستوي ، دوستوفسكي ، غوغول ، شـيللر ، غالزورذي ، بابيني ، توربيه	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
١٦ ــ جزيرة الكنز ــ تاليف روبرت ستيفنسـون	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
١٧ ــ المدخل الى التاريخ الاقتصادي تاليف ج. د. هـ. كول	دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨١

تأليف

العنوان	الناشر	السنة
١ ــ العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٣
٢ ــ دراسة في البيروقراطية السورية	دار دمشق للنشر ــ دمشق	١٩٧٢
٣ ــ اقتصاديات الذهب	دار الطليعة ــ بيروت	١٩٨٠
٤ ــ المرأة العربية بين التخلف والتحرر	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٠
٥ ــ الوطن العربي بين التخلف والتنمية	دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨١
٦ ــ العرب والتكنولوجيا	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
٧ ــ تحديث الوطن العربي بين الميكانيكية العقلية والميكانيكية الخرافية	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
٨ ــ مشكلات الانسان في التحليل النفسي	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٢
٩ ــ الوعي العلمي	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٢
١٠ ــ العرب والحضارة العلمية الحديثة	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٢
١١ ــ تحليل مائة حالة نفسية	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٣
١٢ ــ العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٣
١٣ ــ الانسان العربي والعلم	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٣
١٤ ــ البطالة المقنعة في الوطن العربي	دار طلاس ــ دمشق	١٩٨٤

الفهرس

Religious Psychology

by

Cyril Burt

Translated by

SAMIR ABDOH

Dar - Al - Afaq - Al - Jadida
Beirut - Lebanon

